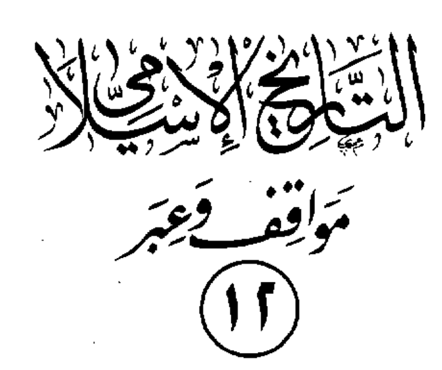




الجزء الرابع

تأليف
دكتور عبد العزيز بن عبد الله الحميدي
الأستاذ بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

دار الأندلس الخضراء
للنشر والتوزيع
جدة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

رقم الإيداع : ١٩٩٧/٥٦٣٢

الترقيم الدولى

977 - 253 - 151 - 8

دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع

١ شـــارع منشـــا - محـــرم بـك - الإســـكندرية

ت : ٤٩٠١٩١٤ - فاكس : ٥٩٥١٦٩٥

مكتب توزيع القاهرة ت : ٣٨٣٢٧٤٧

دار الأندلس الخضــراء للنشر والتوزيــع

حى السلامة - شارع عبد الرحمن السديرى - مركز الزومان التجارى

ص. ب : ٤٢٣٤٠ - جدة : ٢١٥٤١ هاتف / فاكس : ٦٨٢٥٢٠٩

المملكة العربية السعودية


بسم الله الرحمن الرحيم

٧ – معركة نهاوند (فتح الفتوح) –

معاهدة بين الفرس :

ذكر الإمام الطبري خبر اجتماع الفرس بنهاوند وذلك فيما ما أخرجه عن شيوخه أنهم قالوا : وكان من حديثهم أنهم نفروا لكتاب يَزْدجرد الملك – وقد ذكر في رواية سابقة أن الملك كاتب أهل فارس يحرضهم على المسلمين – فتوافوا إلى نهاوند ، وذكروا أنه اجتمع بها خمسون ومائة ألف مقاتل ثم ذكر ابن جرير رواية أبي طعمة الثقفي – وكان قد أدرك ذلك – قال : ثم إنهم قالوا : إن محمداً الذي جاء العرب بالدين لم يَغْرض غَرَضَنا ، ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يغرض غرض فارس إلا في غارة تعرض لهم فيها ، وإلا فيما يلي بلادهم من السواد ، ثم ملك عمر من بعده فطال ملكه وعرض ، حتى تناولكم وانتقصكم السواد والأهواز ، وأوطأها ، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة في عقر دارهم ، وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أخرب بيت مملكتكم ، واقتحم بلاد ملككم ، وليس بمُنْتَه حتى تُخرجوا من في بلادكم من جنوده وتقلعوا هذين المصرين – يعني البصرة والكوفة – ثم تُشغلوه في بلاده وقراره .

قال : وتعاهدوا وتعاقدوا ، وكتبوا بينهم على ذلك كتابا وتمالئوا عليه .

وبلغ الخبر سعدا وقد استخلف عبد الله بن عبد الله بن عتبان، ولما شخص لقي عمر بالخبر مشافهة ، وقد كان كتب إلى عمر بذلك، وقال : إن أهل الكوفة يستأذنونك في الانسياح – يعني لقتال الأعداء–

قبل أن يبادروهم الشَّدَّة ،وقد كان عمر منعهم من الانسياح في الجبل.

وكتب إليه أيضًا عبد الله - يعني ابن عتبان - وغيره بأنه قد تجمَّع منهم خمسون ومائة ألف مقاتل فإن جاؤونا قبل أن نبادرهم الشَّدَّة ازدادوا جرأة وقوة ، وإن نحن عاجلناهم كان لنا ذلكم .

وكان الرسول بذلك قَريب بن ظفر العبدي .

قال فقال - يعني عمر : مااسمك ؟ قال : قريب ، قال: ابن من؟ قال: ابن ظفر ، فتفاءل إلى ذلك وقال : ظفر قريب إن شاء الله ولاقوة إلا بالله .

مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي :

ونُودي في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ووافاه سعد، فتفاءل إلى سعد بن مالك - يعني قدم سعد بن أبي وقاص المدينة فتفاءل عمر بقدومه - وقام - يعني عمر - على المنبر خطيبا ، فأخبر الناس الخبر واستشارهم .

وقال : هذا يوم له مابعده من الأيام،ألا وإني قد هممت بأمر وإني عارضه عليكم فاسمعوه،ثم أخبروني وأوجزوا ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم،ولاتُكثروا ولاتطيلوا فتُفْشَغ بكم الأمور- يعني تتسع- ويلتوي عليكم الرأي،أفَمن الرأي أن أسير فيمن قِبَلي ومن قدرت عليه حتى أنزل منزلا واسطا بين هذين المصرين فأستنفرهم،ثم أكون لهم ردءًا حتى يفتح الله عليهم ويقضي ما أحب، فإن فتح الله عليهم أن أضَرِّيهم عليهم في بلادهم،وليتنازعوا ملكهم.

فقام عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد

الرحمن بن عوف في رجال من أهل الرأي من أصحاب رسول الله ﷺ فتكلموا كلاما ، فقالوا : لانرى ذلك - يعني سير أمير المؤمنين بنفسه- ولكن لايغيبنَّ عنهم رأيك وأثرك ، وقالوا : بإزائك وجوه العرب وفرسانهم وأعلامهم ، ومن قد فضَّ جموعهم وقَتَل ملوكهم ، وباشر من حروبهم ما هو أعظم من هذه ، وإنما استأذنوك ولم يستصرخوك ، فأذَنْ لهم وانْدب إليهم وادْع لهم .

وكان الذي ينتقد له الرأي إذا عرض عليه العباس رضي الله عنه - يعني يعرض عليه الآراء ويأخذ رأيه فيها - .

قال : فقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال : أصاب القوم ياأمير المؤمنين الرأي ، وفهموا ما كُتب به إليك ، وأن هذا الأمر لم يكن نصره ولاخذلانه بكثرة ولا قلة ، هو دينه الذين أظهر وجنده الذي أعزَّ ، وأيَّده بالملائكة حتى بلغ مابلغ ، فنحن على موعود مع الله والله منجز وعده وناصر جنده ،ومكانُك منهم مكانُ النظام من الخرز ، يجمعه ويمسكه ، فإن انحل تفرق مافيه وذهب ، ثم لم يجتمع بحذا فيره أبدا، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فهم كثير عزيز بالإسلام ، فأقم واكتب إلى أهل الكوفة فهم أعلام العرب ورؤساؤهم، ومن لم يحفل بمن هو أجمع وأحدّ و أجدّ من هؤلاء ، فليأتهم الثلثان وليقم الثلث ، واكتب إلى أهل البصرة أن يمدوهم ببعض من عندهم .

فسُرَّ عمر بحسن رأيهم ، وأعجبه ذلك منهم .

وقام سعد فقال : يا أمير المؤمنين خفِّض عليك فإنهم إنما اجتمعوا لنقمة - يعني من الله عليهم - [1] .

وفي هذا الخبر بيان اهتمام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأمور المسلمين حتى بلغ به كثرة التفكير فيهم والخوف عليهم حدًّا حمله على التفكير في السير نحو العراق ليكون قريبًا منهم ، وهذا دليل على مقدار ما يعاني من الهمِّ من أجلهم ، ولكنه كان مطبِّقًا تمام التطبيق لأمور الإسلام في السلم والحرب، فلم يكن يبُتُّ في شيء مهم إلا بعد جمع أهل الحل والعقد والتشاور معهم .

وهذا مثل مهم لقيام الشورى بين الخليفة وأهل الحل والعقد فلقد كان رأي الخليفة أن يخرج بنفسه فيكون بين البصرة والكوفة فيستحث الناس، ويمد الجيش بالجنود ، وبعد مداولة الرأي عدل عمر عن رأيه إلى الرأي الذي عرضه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير ابن العوام وغيرهم من أهل الرأي ، وأيده على بن أبي طالب وشرحه بجلاء، مما جعل أمير المؤمنين يطمئن لهذا الرأي رضي الله عنهم أجمعين .

وهكذا تظهر قيمة الشورى ، حيث تَتَفَتَّق أذهان أهل الرأي بعد توفيق الله تعالى عن الآراء السديدة التي تستريح لها نفوس المؤمنين الصادقين .

هذا وفي كلام علي بن أبي طالب دليل على رسوخ اليقين في قلوب الصحابة رضي الله عنهم بأن الله تعالى منجز وعده بالتمكين

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٢ - ١٢٤ .

لهذا الدين في الأرض ، وهذه العقيدة تُعطي النفوس طمأنينة عالية وإقدامًا عظيمًا في قتال الأعداء ، وإنما الذي يخالج النفوس هو الخوف من وقوع المجاهدين بشيء من معصية الله تعالى ، فتُنْزَع منهم هذه الكرامة العظيمة ، وتُكتَب على يد غيرهم ، وهذا هو الذي كان يخشاه عمر رضي الله عنه كثيراً ويذكِّر به جنده وقادته .

كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان :

هذا وقد بعث أمير المؤمنين كتابًا جاء فيه : بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله أمير المؤمنين إلى النعمان بن مقرن ، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإنه قد بلغني أن جموعًا من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند، فإذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولاتوطئهم وعراً فتؤذيهم، ولاتمنعهم حقهم فتكفِّرهم، ولا تدخلنَّهم غيضة، فإن رجلا من المسلمين أحب إليَّ من مائة ألف دينار والسلام عليك(١) .

ومع هذه الوصايا الغالية لابد أن نقف وقفات سريعة لنستشف مغزاها وعمق أثرها في تقويم السلوك ونجاح العمل .

فنجد عمر رضي الله عنه يقول لقائده « ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم» يعني فليس المهم في مسير الجيوش أن تصل إلى أهدافها في وقت قياسي وإن أضر بأفرادها ، إنما المهم أن تصل وهي محتفظة بقوتها وحيويتها وهذا يرجع إلى سياسة القائد وحزمه في اغتنام الفرص والجدِّ في الأمر من غير إيذاء ولا إنهاك .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١١٤ - ١١٥ من روايته عن محمد بن إسحاق .

ونجده يقـول « ولاتمنعهم حقـهم فتكفِّـرهم » وذلك أن من أقوى العـلاقات بين القـائد والجنود أن يشـعروا بأن قـائدهم حـريص على مصلحتهم ، وأنه يسيـر بهم بالعدل والرحمة ، وأنه حريص على أداء الحـقوق إلى أصـحـابها في وقـتـها المحـدد ، مما يجـعلهم يشكرون فيضاعفون من جهدهم في العمل ، أما منعهم حقوقهم فإنه قد يؤدي إلى كفر النعمة ، فينسيهم اهتمامهم بحقهم الممنوع ما كان من معروف سابق، وذلك يؤدي إلى اختلال العمل .

إن مـن أهـم عـوامـل النجاح في الـعمل أن يكون فكر العـاملين منصـرفا إلى محـاولة النجاح والـتفوق في عـملهم ، فـإذا تأخر أداء حقـوقهم المالية أو مُنعـوا منها فإن جزءًا مـن فكرهم ينصرف إلى هذا الهمِّ الحاضر، وذلك يؤدي إلى الفشل في أداء العـمل ، واهتزاز الثقة والولاء بينهم وبين المسئول عنهم ، الذي كان سببا في منع حقوقهم أو تأخيـرها ، وذلك من أمـيـر المؤمنين عـمر رضـي الله عنه من باب الاحـتـياط للـعمل والـرأفة بالمسـلمين ، وإلا فـمن المعلوم أن الدافع الأساسي للمجاهدين هو ابتغاء رضوان الله تعالى والجنة .

ونجد أمير المؤمنين يقول في وصيته « ولاتدخلنّهم غيضة فإن رجلا من المسلمين أحب إلي من مـائة ألف دينار » والغـيضـة هي الشجـر الملتف ، وإنما نهاهم عـمر عن نزول الغياض لأنهم إذا نزلوهـا تفرقوا فيها فتمكن منهم العدو .

فهي وصيـة بأخذ الحيطة والحذر للمسلـمين حتى لايُؤخذوا على غرة، ومادامـوا في وسط بلاد الكفار فهم مُعرَّضـون لغدر الأعداء في

كل لحظة ، فمن الاحتراس والحفاظ على أرواح المسلمين أن يبعدهم القائد عن مواطن الخطر في حال أمنهم وراحتهم .

إن تسيير الجيوش الإسلامية وتعريضها للأهوال ليس من أجل جباية الأموال ، ولا من أجل توسيع الملك ، فإن بقاء المسلمين في راحة وطمأنينة أحب إلى عمر من أموال الدنيا ، وإنما بُعِثَتْ تلك الجيوش لتحقيق الهدف الأعلى من وجود الإنسان في الأرض وهو أن يُعْبَد الله وحده ، وأن لاترفع فوق الأرض غير راية التوحيد ، وأن لاتقوم في الأرض غير دولة الإسلام ، ومن أجل هذا الهدف السامي تهون النفوس وتعلو الهمم .

فأما حين تذهب النفوس بسبب تفريط من القائد دون أن تحقق شيئًا من أهدافها فهو خسارة في ميزان الدول والمبادئ وإن كان بالنسبة لأفراد الجيش الإسلامي لايعتبر كذلك لأنهم شهداء .

هذا وقد كتب عمر رضي الله عنه إلى والي الكوفة عبد الله بن عتبان مع رِبعيِّ بن عامر : أن استنفر من أهل الكوفة مع النعمان كذا وكذا[1]، فإني قد كتبت إليه بالتوجه من «الأهواز» إلى «ماه» فليوافوه بها وليَسِرْ بهم إلى «نهاوند» وقد أمَّرت عليهم حذيفة بن اليمان حتى ينتهي إلى النعمان بن مقرن ، وقد كتبت إلى النعمان : إنْ حدث بك حدث فَعَلَى الناس حذيفة بن اليمان ، فإن حدث بحذيفة حدث فعلى الناس نُعَيْم بن مقرن [2] .

---

(١) يعني الثلثين كما قال علي رضي الله عنه واستقر عليه أمر الشورى .

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٢٧ من روايته عن سيف بن عمر .

هذا ومن خطة الحرب التي وضعـها عمر ونفَّذها النعـمان وقادته رضي الله عنهم وَضْع حاميـات من جيش المسلمين على منافذ الطرق المؤدية إلى نهاوند لمنع أمداد الفرس ، ولحـماية جيش المسلمين إذا سار إلى نهاوند ، وقـد نجحت الخطة حـيث وقف إمداد الفرس بالجـيوش وسار النعمان بجيشه وهو آمن من خلفه .

مغامرة من طليحة الأسدي :

وذكر الطبري في روايته عن سيف بن عمـر أن النعمان قد استقر بجيشه في مكان يقـال له « الطَّزَر » لتجتمع إليه الجيـوش الإسلامية ، وأنه حينما عزم على المسـير بعث طَليعةً استكشافـيه مكونة من طليحة ابن خويلد الأسدي وعمرو بن مـعد يكرب الزبيدي ، وعمرو بن أبي سلمى ، ليَخبُروا له الطريق إلى نهاوند ، فلما ساروا يومًا وليلة رجع عـمرو بن أبي سلمـى فقـالوا : مارجَّـعك ؟ قـال : كنت في أرض العجم ، وقتَلتْ أرض جـاهلَها ، وقتل أرضًا عالُمها ، ومـضى طليحة وعـمرو بن مـعدي كـرب حتى إذا كـان من آخـر الليل رجع عمـرو فقـالوا : مارجَّعك ؟ قـال : سرنا يومًا وليـلة ولم نر شيئًـا ، وخفت أن يُؤخَذ علينا الطريق ، ونفذ طليحة ولم يحفل بهما ، ومضى حتى انتهى إلى نهاوند ، ولما اسـتبطأه الناس ظن بعضهم أنه قـد ارتد مرةً ثانية ، فلما أقبل عليهم كبَّروا ، ولما علم بظنهم أنكر عليهم ذلك ثم دخل على النعمان فأخبره أنه ليس بينه وبين نهاوند شيء يكرهه ولا أحد [1] .

وهذا موقف عظيم مـن مواقف الجسـارة والإقدام يُذكَر لطليـحة إضافة إلى مـوقف مماثل قام به في القادسيـة ، ولئن كان وقع في أيام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٧ - ١٢٨ .

الردة في الفتنـة وارتكب ذنبًا عظيمًـا ، فإنه قد تاب إلـى الله تعالى، وقدَّم لأمته الإسلامية ولدينه تضحيات لم يقم بها أحد مثله فيما يتعلق بمهمة استشكاف أرض العدو .

ولئن كـان عـمر رضي الله عنـه قد أوصى قـادة المسلمين بعـدم الاعتمـاد عليه وعلى أمثاله من قـادة المرتدين في مهمات قـيادية، فإن ذلك لايعني اتهامـهم في دينهم ولكنه من باب الاحتيـاط للمسلمين، وهذه سنة يجب أن يتنبه لها المسـئولون عن الأمة، وذلك بأن لايسندوا المناصب القيادية لمن سِبق لهم أن شاركوا في مذاهب هدامة يُقصَد بها القضاءعلى وجود الإسلام، وإن ظهرت توبة هؤلاء وحسنت أعمالهم.

وصول المسلمين إلى نهاوند :

وذكر الطبري في سياق روايته أنه بعد أن تأكد النعمان من سلامة الطريق إلى نهـاوند نادى بالرحيل وأمر المـسلمين بالتعبـية وسـار نحو نهاوند، فوافى جيـش الفرس قرب نهاوند وهم على تعبيـتهم وأميرهم الفيرزان، فلما رآهم النعمان كبَّر، وكبر الناس معه فتزلزت الأعاجم[1] .

فـــ « الله أكبر » سلاح عظيم من أسلحة الرعب التي يزلزل الله بها قلوب الكفـار ، فهي سلاح معنوي يسبق الـسلاح المادي ويمهد له بخلع قلوب الأعداء وإرهابهم .

وهو سلاح مـاضي المفعول إذا صـدر من قلوب مؤمنة تعتـقد بما تقول، وتسـتحضر عظمة اللـه سبحانه الذي بيده كـل شيء فإذا كان الكفار قد اعتزوا بكثرة عددهم وقوة عُددهم فالله جل وعلا أكبر منهم ومن كل مخلوق .

---

(١) تاريخ الطبري ١٢٨/٤ - ١٢٩ .

إن استصحاب الشعور بعظمة الله تعالى وأن كل مافي هذا الكون في قبضته جل وعلا يجعل المؤمنين المتقين يحتقرون جمع الأعداء وقوتهم مهما بلغوا في ذلك، وهذا الشعور يجعلهم يقْدمون على قتالهم بقلوب مليئة بالإيمان ونفوس مفعمة بالثقة واليقين بنصر الله تعالى.

أما الكفار فإنهم لتجاربهم السابقة مع المسلمين أصبحوا يفزعون من تكبير المؤمنين، لِمَا كان يَعقُب ذلك من هجوم صاعق لايقبل التراجع، وإقدام على الموت لايقبل التردد، فأصبح ذلك الهجوم المرعب مقترنًا برفع شعار التكبير، فصار له مفعول الهجوم الساحق، ولذلك تزلزل الفرس لما سمعوا التكبير من المسلمين مع أن المعركةلم تبدأ بعد.

قال : فأمر النعمان وهو واقف بحط الأثقال وبضرب الفسطاط ، فَضُرب وهو واقف ، فابتدره أشراف أهل الكوفة وأعيانهم ، فسبق إليه يومئذ عدة من أشراف أهل الكوفة ، وقد ذكر الإمام الطبري في روايته أسماء أربعة عشر منهم [1] .

وهذا الخبر قد يبدو صغيرًا لايستحق أن ينوه به ، ولكنه في الحقيقة يكشف عن جانب من طبيعة ذلك المجتمع العالي ، فالجيوش الإسلامية آنذاك ليس فيها مقاتلون وخدم أتباع ، كما هو الحال في جيوش الكفار، وقد سبق لنا مثال لذلك في القادسية حيث كان مع جيش الفرس مثلهم من الأتباع الخدم ، أما جيش المسلمين فإنهم كلهم مقاتلون ، ويتنافسون في أعمال الخدمة لأنهم يعتبرونها أعمالا صالحة يثابون عليها عند الله تعالى .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٩

فهؤلاء أشراف أهل الكوفة يتنافسون في بناء فسطاط القيادة وهذا كما يدل على مستوًى عالٍ من خلق التواضع ، وعلى رغبة عالية في فعل الخير والعمل الصالح ، فإنه يدل بمضمونه على علو مكانة قائدهم في نفوسهم ، فللَّه درُّهم ، ما أعظمهم قادةً وما أعظمهم جنودا !

مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي :

قال : وأنشب النعمان بعد ما حط الأثقال القتال ، فاقتتلوا يوم الإربعاء والخميس وذلك لسبع سنين من إمارة عمر في سنة تسع عشرة وأنهم انحجزوا في خنادقهم يوم الجمعة ، وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله ، والأعاجم بالخيار لايخرجون إلا إذا أرادوا الخروج، فاشتد ذلك على المسلمين ، وخافوا أن يطول أمرهم وسَرَّهم أن يناجزهم عدوهم ، حتى إذا كان ذات يوم في جمعة من الجُمع تجمع أهل الرأي من المسلمين ، فتكلموا وقالوا : نراهم علينا بالخيار، وأتوا النعمان في ذلك فأخبروه فوافقوه وهو يُروِّي في الذي روَّوا فيه ، فقال: على رسلكم لاتبرحوا ، وبعث إلى من بقي من أهل النجدات والرأي في الحروب، فتوافوا إليه فتكلم النعمان فقال : قد ترون المشركين واعتصامهم بالحصون من الخنادق والمدائن ، وأنهم لايخرجون إلا إذا شاؤوا ، ولايقدر المسلمون على إنغاضهم - يعني تحريكهم - وانبعاثهم قبل مشيئتهم ، وقد ترون الذي فيه المسلمون من التضايق من الذي هم فيه وعليه من الخيار عليهم في الخروج فما الرأي الذي به نُحْمِشُهم ونستخرجهم إلى المنابذة وترك التطويل ؟ فتكلم عمر ابن ثُبَي - وكان أكبر الناس يومئذ سنًا ، وكانوا إنما يتكلمون على

الأسنان - فقال: التحصن عليهم أشد من المطاولة ، فدعهم ولاتحرجهم وطاولهم ، وقاتل من أتاك منهم ، فردوا عليه جميعًا رأيه، وقالوا : إنا على يقين من إنجاز ربنا موعده لنا .

وتكلم عمرو بن معد يكرب فقال: ناهدهم وكاثرهم ولا تَخَفْهم، فردوا عليه جميعًا رأيه وقالوا : إنما تناطح بنا الجدران ، والجدران أعوان لهم علينا .

وتكلم طليحة فقال : قد قالا ولم يصيبا ما أرادا ، وأما أنا فأرى أن تبعث خيلا مؤدِّية ، فيحدقوا بهم ، ثم يرموا لينشبوا القتال ويُحْمشوهم، فإذا استَحْمَشُوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج أرزوا إلينا استطرادا ، فإنا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم ، وإنا إذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا في هزيمتنا ولم يشكُّوا فيها فخرجوا فجادُّونا وجاددناهم حتى يقضي الله فيهم وفينا ما أحب .

هذا وقد أمر النعمان بتنفيذ هذه الخطة من تلك الساعة مما يدل على أنها حازت على استحسانهم وموافقتهم كما سيأتي [1] .

وهذه خطة من النعمان يُحمد عليها أن جمع أهل الرأي والنجدة واستشارهم في الخروج من تلك المشكله ، وهذه الطريقة التي تقوم على الالتزام بمبدإ الشورى من أعظم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين في حروبهم وإداراتهم .

وقد أدلى بعضهم برأيه ، وتم نقده ورده ، إلى أن استقر الرأي على ما طرحه طليحة بن خويلد الأسدي ، وكان موفقًا فيما رأى .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٢٩ - ١٣٠ .

وسيتبين لنا من أحداث المعركة كيف أن هذا الرأي كان مفتاح الالتحام الحاسم مع الأعداء ، وهو رأي سيظل حبيسًا في فكر صاحبه لو أن القائد استبدَّ برأيه ، أو قصره المشورة على أناس محدودين .

ومن خلال دراسة هذه المشورة يتبين لنا أنهم كانوا يُخَطِّئون الرأي المجانب للصواب ، ولايرون في ذلك غضاضة ، ولاتحملهم المجاملة والمداراة على السكوت عن الخطأ أو البحث عن الحلول الوسط، بل كانوا صرحاء في نقد الآراء ، ولم يكن من انتُقد رأيه ورُدّ يحمل على من انتقده، ولايدفعه الغيظ منه على أن يخطئ رأيه وإن كان صوابًا ، ذلك أن رائدهم جميعًا هو طلب مرضاة الله تعالى ونصرةُ الإسلام ، فهم يفرحون بالعثور على الرأي الصائب وإن كان ممن انتقدهم وخطأ رأيهم .

وبهذا السلوك القويم نجحوا في حياتهم السلمية والحربية .

قال : فأمر النعمان القعقاع بن عمرو - وكان على المجرَّدة[1] ففعل ، وأنشب القتال بعد احتجاز العجم ، فأنغضهم - يعني حركهم للقتال- فلما خرجوا نكص ، ثم نكص ثم نكص ، واغتنمها الأعاجم ففعلوا كما ظن طليحة وقالوا : هي هي ، فخرجوا فلم يبق أحد إلا من يقوم لهم على الأبواب ، وجعلوا يركبونهم حتى أرز القعقاع إلى الناس ، وانقطع القوم عن حصنهم بعض الانقطاع والنعمان بن مقرن والمسلمون على تعبيتهم في يوم جمعة في صدر

---

(١) يعني الخيل التي جُرِّدَتْ وانتخبت لتكون في المقدمة .

النهار وقد عهد النعمان إلى الناس عهده، وأمرهم أن يلزموا الأرض ولا يقاتلوهم حتى يأذن لهم ، ففعلوا واستتروا بالحَجَف من الرمي ، وأقبل المشركون عليهم يرمونهم حتى أفشوا فيهم الجراحات ، وشكا بعض الناس ذلك إلى بعض ، ثم قالوا للنعمان : ألا ترى مانحن فيه؟ ألا ترى إلى ما لقي الناس فما تنتظر بهم؟ ائذن لنا في قتالهم ، فقال لهم النعمان : رويدا رويدا ، قالوا ذلك مرارا فأجابهم بمثل ذلك مرارا ، رويدا رويدا ، فقال المغيرة : لو أن هذا الأمر إليَّ علمت ما أصنع ، فقال : رويدا ترى أمرك ، وقد كنت تلي الأمر فتحسن فلا يخذلنا الله ولا إياك ، ونحن نرجو في المكث مثل الذي ترجو في الحث ، وجعل النعمان ينتظر بالقتال إكمال ساعات كانت أحب إلى رسول الله ﷺ في القتال أن يلقى فيها العدو ، وذلك عند الزوال وتفيؤ الأفياء ومهب الرياح ، وجاء في رواية حدير: إنه والله ما منعني أن أناجزهم إلا شيء شهدته من رسول الله ﷺ ، إن رسول الله ﷺ كان إذا غزا فلم يقاتل أول النهار لم يعجل حتى تحضر الصلاة وتهب الأرواح ويطيب القتال (١) .

وعملُ النعمان هذا يعتبر مثلا لما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من الاهتمام بسنة رسول الله ﷺ ومنهجه ، وتيمُّنهم باتباع ذلك، وقد كان مَثَلَهم الأعلى في ذلك أبو بكر رضي الله عنه حيث كان أحرص المسلمين على التقيد بالسنة ، وظهر للصحابة بركة ذلك وعواقبه المحمودة ، ثم كان عمر رضي الله عنه كذلك من بعده .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١١٩ .

فالنعمان لايزال على ذكر من ذلك، فكان يتربص بالمسلمين حلول الساعة التي كان رسول الله ﷺ يحب أن يبدأ القتال بها ، وهي ساعة الزوال ، وذلك إذا لم يبدأ القتال في الصباح .

وإن في إجابة النعمان للمغيرة بن شعبة مثلا للأدب الإسلامي الرفيع فهو مع كونه قائد الجيش لم يعنِّفه حين اعترض على رأيه ، وهذا يدل على تواضعه وسماحته ، بل إنه أثنى عليه بالإحسان في ولايته ، وبين له أن ما يرجوه في الإسراع من النكاية بالأعداء ، وتلمُّس أسباب النصر يرجوه هو بالتأنِّي ، وأنه إنما لاحظ بالتأني أمرًا هو فوق رأيه ورأي المغيرة وغيره ، وهو الاقتداء بالنبي ﷺ .

خطبة للنعمان :

قال : فلما كان قريبًا من تلك الساعة - يعني ساعة الزوال - تحشحش النعمان - أي تحرك - وسار في الناس على برذون أحوى - يعني قصير - قريب من الأرض ، فجعل يقف على كل راية ويحمد الله ويثني عليه ، ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين وماوعدكم من الظهور ، وقد انجز لكم هوادي ماوعدكم وصدوره[1]، وإنما بقيت أعجازه وأكارعه ، والله منجز وعده ، ومتْبِع آخر ذلك أوله، واذكروا ما مضى إذ كنتم أذلة ، وما استقبلتم من هذا الأمر وأنتم أعزة ، فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه ، وقد علمتم انقطاعكم من إخوانكم من أهل الكوفة ، والذي لهم في ظفركم وعزكم والذي عليهم في هزيمتكم وذُلِّكم ، وقد ترون من أنتم بإزائه

---

(١) يعني أوائله ومقدماته .

من عدوكم ، ومـا أخطرتم وما أخطروا لكم ، فأمـا ما أخطروا لكم فهـذه الرِّثَة - يعني المتاع - وماترون من هذا السـواد - يعني البلاد - وأما ما أخطرتم فدينكم وبيضتكم- يعني دولتكم وقوتكم - ولا سواء ما أخطرتم ومـا أخطروا ، فلا يكونُنَّ على دنياهـم أحمى منكم على دينكم ، واتَّقى اللَّه عـبدٌ صدق الله ، وأبلى نفـسه فأحـسن البلاء ، فإنكم بين خيرين منتظَرَين ، إحدى الحسنيين ، من بين شهيد حيّ مرزوق ، أو فتح قريب وظفر يسـير ، فكفى كل رجل ما يليه ، ولـم يَكلْ قرنه إلى أخـيه ، فيـجتمع عليـه قرنه وقرن نفـسه ، وذلك من المْلأمَة ، وقد يقاتل الكلب عن صاحبه ، فكل رجل منكم مسلَّط على ما يليه ، فـإذا قضيت أمري فاسـتعدوا فإني مكبر ثلاثا ، فـإذا كبرت التكبيرة الأولى فليتهيأ من لم يكن تهيأ ، فإذا كبرت الثانية فليشد عليه سلاحه ، وليتـأهب للنهوض ، فإذا كبرت الثالثـة فإني حامل إن شاء الله فاحملوا مـعًا ، اللهم أعز دينك وانصر عبادك ، واجـعل النعمان أول شهيد اليوم على إعزاز دينك ونصر عبادك (١) .

هذا وإن خطبة النعمان هذه تعتبر من عيون الخطب الحربية ، وقد اشتملت على مواعظ وتوجـيهات عالية ، نوجز التـعليق على بعضها فيما يلي :

١ - ذكَّر النعـمان ذلك الجيش بوعـد الله إياهم بالنصر ، وذلك يجعلهم متفائلين بأن المعركة ستكون لصالحهم ، ولاشك أن من دخل المعركـة وهو واثق من النصر سيكون حـماسه وقوته أعظمَ بكثـير ممن دخلها وهو متردد خائف .

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٠ - ١٣٢ .

٢ - ذكَّرهم بما سيفقده الأعداء إذا انهزموا ، وما سيفقده المسلمون إذا انهزموا .

فالأعداء سيفقدون مظاهر الدنيا ومتاعها الزائل ، أما المسلمون فإنهم يخاطرون بدينهم الذي هو المصدر الوحيد للنور الإلهي في الأرض، ودولتهم التي لايوجد على ظهر الأرض من يمثل الحق غيرها، ولاسواء بين النتيجتين .

وفي هذا تذكير لهم بهدفهم الأسمى من وراء حروبهم المتواصلة ليبذلوا كل طاقتهم في الدفاع عن هذا الهدف .

٣- ذكَّرهم بإحدى الحسنيين : إما النصر على الأعداء ، أو الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وذلك إشارة إلى قول الله تعالى ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ** ﴾ [**التوبة** : ٥٢] يعني هل تنتظرون بنا أيها الأعداء في جهادنا من النتائج إلا أن نظفر بإحدى النتيجتين اللتين كل واحدة منهما هي حُسْنَى النتائج في مجالي الحياة والموت ؟ فإما حياة عزيزة بالنصر على الأعداء، وإما موت كريم بالظفر بالشهادة وكلاهما خير وسعادة .

٤ - ذكَّرهم بلزوم بذل الطاقة في الجهاد ، وذلك بأن يشعر المجاهد بأنه مسئول عن قتال من أمامه من الأعداء ، وأن لاتنازعه نفسه إلى الاتكال على أخيه المجاور له فيجمع عليه صد العدو المقابل لهما فتضعف قُوَّته بذلك .

ابتداء المعركة الفاصلة :

قال الطبـري في سياق الرواية المذكـورة : فلما فرغ النعـمان من التقدم إلى أهل الموقف ، وقضى إليهم أمـره رجع إلى موقفه ، فكبَّر الأولى والثانية والثالثة والناس سامعون مطيعون مستعدون للمناهضة ، يُنَحِّي بعـضهم بعضـا عن سنَنهم - يعني يحاول كـل واحد أن يوسع مجاله الذي يقـاتل فيه فداء لأخيه - وحمل النعـمان وحمل الناس ، وراية النعمان تنقضُّ نحـوهم انقضاض العُقاب والنعمـان مُعْلَم ببياض القباء والقلنسوة، فاقتتلوا بالسيـوف قتالاً شديدًا ، لم يسمع السامعون بوقعة يوم قط كان أشـد قتالاً منها ، فقَتَلوا فيهـا من أهل فارس فيما بين الزوال والإعتام ما طبق أرض المعركة ومايزلق الناس والدواب فيه، وأصيب فُرسان من فرسان المسلمين في الزلق في الدماء ، فزلق فرس النعمـان في الدماء فـصرعـه ، وأصيب النعـمان حين زلق به فـرسه وصُرع ، وتناول الراية نُعَـيم بن مقرن قبل أن تقع ، وسـجّى النعمان بثوب ، وأتى حذيفةَ بالراية فدفعـها إليه ، وكان اللواء مع حذيفة ، فجعـل حذيفة نعيم بن مـقرن مكانه وأتى المكان الذي فيه النـعمان ، فأقام اللواء ، وقال له المغـيرة : اكتموا مصاب أمـيركم حتى ننظر ما يصنع الله فينا وفيهم لكَيْلا يَهِنَ الناس .

واقتتلوا حتى إذا أظلهم الليل انكشف المشركون وذهبوا والمسلمون مُلظُّون بهم متلبِّسون ، فَعُمِّي عليهم قـصدهم ، فتركوه وأخذوا نحو اللِّهب [1] الذي كانوا نزلـوا دونه بإسبيـذهان فوقعـوا فيـه ، وجعلوا لايهوِي منهم أحـد إلا قال « وايه خُرْد » فسـمِّي بذلك « وايه خرد »

---

(١) اللهب المكان العميق .

إلى اليوم ، فمات فيه منهم مائة ألف أو يزيدون ، سوى من قُتل في المعركة أعدادهم ولم يفلت إلا الشريد [1] .

وهكذا جاء في هذه الرواية أن النعمان رضي الله عنه زلقت به فرسه فصُرع ، وجاء في رواية ابن إسحاق وحدير أنه أصابته نَشَّابة من سهام العدو فقتلته [2] ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأنه أصابه السهم وزلقت فرسه فصرع على الأرض .

وهكذا استجاب الله تعالى دعاءه فتقبله شهيداً ذلك اليوم والمعركة على أشدِّها .

ولقد ألهم الله تعالى أمير المؤمنين عمر حينما عيَّن خليفة النعمان من بعده ، وكأنه كان يتوقع استشهاده ، ولم يكن يفعل ذلك في أكثر المشاهد، بل كان يعين قائدا واحدا ، وقد يعين القائد من يخلفه وقد لايفعل .

وهكذا انتهت هذه المعركة المثيرة التي استمر المسلمون فيها في الضرب والطعان من زوال الشمس إلى أن أظلم الليل ، وكانت بضراوتها وكثافة قتلاها من المشركين تعادل معركة دامت عدة أيام .

وهذا يدل على أن المسلمين قد بذلوا طاقة عظيمة ، وذلك لإخلاصهم ورغبتهم الأكيدة في إعزاز دينهم وحماية دولتهم .

وإن مما يثير العجب في نهاية المعركة أن الفرس حينما هُزموا عند ظلام الليل لم يلجئوا إلى بلادهم وحصونهم ، وهي ليست منهم

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٢ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١١٥ - ١١٩ .

ببعيد، والمسلمون لم يطوقوهم من الخلف ، ولم يكن ذلك متيسراً للمسلمين وهم خُمس عدد الأعداء ، فلماذا تركوا طريق بلادهم واتجهوا نحو اللِّهب، وهو حسب سياق الرواية منخفض عميق مهلك لمن وقع فيه، فلماذا اتجهوا نحو هذا المكان المهلك ليموت فيه مائة ألف أو يزيدون ؟

هل كان باستطاعة المسلمين وهم بذلك العدد المحدود أن يتولوا قتال من يليهم من الأعداء وأن يسوقوا بقيتهم قسرا ليتردَّوا في ذلك المكان المهلك؟

ثم ما الذي ألجأ الصف الثاني ومابعده إلى السقوط وقد سمعوا صراخ الصف الأول ورأوا مصارعهم ؟ ألم يكن بإمكانهم التراجع وتحذير من بعدهم من المصير المشئوم ؟

ثم ما الفارق بين هذا اللقاء وماسبقه من لقاءات حربية حيث كان الأعداء يخرجون لقتال المسلمين متى أرادوا فإذا أحسوا بالهزيمة تراجعوا ولجئوا إلى خنادقهم وحصونهم ؟ فما بالهم ذلك اليوم لم يفعلوا ذلك؟

الحقيقة أن المتأمل في واقع هذه المعركة ومعركة اليرموك المشابهة لها يترجح لديه أن هناك قوةً عظيمة غير منظورة تولت دفع تلك الكتلة الهائلة من البشر بقوة وعنف حتى أوقعتهم في المنخفض السحيق .

إن الله سبحانه يمد المؤمنين عند اشتداد الموقف بالملائكة عليهم السلام ، وقد تقدم لنا في عرض مواقف اليرموك أن أبا عبيدة رضي

الله عنه ورجلاً آخر رأيا في النوم ليلة المعركة أن الملائكة يقاتلون مع المؤمنين .

وفي كلام علي بن أبي طالب السابق ما يدل على أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يعتقدون بأن الملائكة تقاتل مع المسلمين حيث يقول «وأيده - يعني أيد الله جند الإسلام - بالملائكة حتى بلغ مابلغ» أما في عهد النبي ﷺ فإن أمر مشاركة الملائكة واضح وصريح كما جاء في الآيات التي نزلت في معركة بدر والأحزاب وحنين .

وبهذا يتبين لنا أن من المرجح أن الله سبحانه أيَّد المؤمنين في نهاوند بالملائكة عليهم السلام فقضوا في الليل على بقية الكفار الذين لم تصل إليهم سيوف المسلمين بالنهار ، بعد مابذل المسلمون جهدا عظيما في قتال الأعداء لم يسبق له مثيل .

ومما يؤيد ذلك أيضًا أن الرواة لم يذكروا أن المسلمين ألجئوا الكفار إلى ذلك المنحدر ، بل ذكروا أنهم عَمُوا عن قصدهم ، فلم يهتدوا إلى طريق مدينتهم وهذا إذا كان متصورًا وقوعه من أفراد منهم فإنه لايتصور مما يزيد على مائة ألف .

مواقف لبعض المجاهدين في نهاوند :

من المواقف التي تستحق أن يشار إليها ماجرى من سماك بن عبيد العبسي ، وقد أخرج خبره الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه عمَّن حدثهم من قومهم قال : بينما نحن محاصرو أهل نهاوند خرجوا علينا ذات يوم فقاتلونا فلم نُلْبثهم أن هزمهم الله ، فتبع سماك بن عبيد العبسي رجلا منهم معه ثمانية نفر على أفراس

لهم ، فبارزهم فلم يبرز له أحد إلا قتله حتى أتى عليهم ، ثم حمل على الذي كانوا معه، فأسره وأخذ سلاحه ، ودعا له رجلا اسمه «عبد » فوكله به ، فقال: اذهبوا بي إلى أميركم حتى أصالحه على هذه الأرض وأؤدِّي إليه الجزية ، وسلني أنت عن إسارك ماشئت ، وقد مننتَ عليَّ إذ لم تقتلني ، وإنما أنا عبدك الآن ، وإن أدخلتني على المَلك وأصلحت مابيني وبينه وجدتَ لي شكرا ، وكنتَ لي أخا، فخلَّى سبيله وآمنه ، وقال من أنت ؟ قال : أنا دينار - والبيت منهم يومئذ في آل قارن - فأتى به حذيفة ، فحدثه دينار عن نجدة سماك وماقتل ونَظَره للمسلمين ، فصالحه على الخراج (١) .

هذا وإن ما يتضمن هذا الخبر من شجاعة سماك العبسي ليعتبر مثلا على جرأة المسلمين في الحروب ، فإن إقدام سماك على مطاردة تسعة من الفرسان قد يعرِّض حياته للخطر فيما لو اجتمعوا جميعًا لمقاومته ، وهو أمر محتمل ، ولكن هذا البطل وأمثاله لا يضعون في حسابهم هذا الاحتمال ، لأن الواحد منهم إنما خرج يريد الشهادة ، فإما حصلت له على أيدي هؤلاء ففاز فوزًا عظيمًا ، وإما قتلهم أو هزمهم فقد ظفر بإحدى الحسنيين فهو موقن بالربح العظيم سواء ظفر بالشهادة أو بالنصر.

ولقد كان من نتائج هذه المطاردة المباركة قتل ثمانية من الأعداء واستسلام قائدهم ، وماتم بعد ذلك من المصالحة بينه وبين المسلمين على الإقليم الذي كان تحت ولايته .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٥ .

ومن المواقف المذكورة ما قام به القعقاع بن عمرو من قتل قائد الفرس «الفيرُزان » ، وكان القعقاع على مقدمة نعيم بن مقرن الذي تولَّى مهمة مطاردة من فرَّ من المعركة وقدَّم أمامه القعقاع بن عمرو فأدرك القعقاع الفيرُزان في ثنية همذان ، وكانت مشحونة من بغال وحمير موقرة عسلاً، فلم يستطع اجتيازها بدابَّته فنزل منها ، وهرب في الجبل فنزل القعقاع وتبعه حتى قتله ، وقال المسلمون إن لله جنوداً من عسل[1] .

وهكذا قضى القعقاع على أحد كبار قادة الفرس فكفى المسلمين شره بعد ذلك ، وهو عمل جليل يضاف إلى بطولاته الكثيرة التي مز ذكر بعضها.

وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر :

هذا ما كان من شأن المسلمين في نهاوند ، أما أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان يستنصر للمسلمين ويدعو لهم كما جاء في رواية زياد بن حدير عن أبيه أن أمير المؤمنين في المدينة يستنصر لهم ويدعو لهم مثل الحُبْلَى[2] .

وهذا التشبيه يدل على ما كان يعاني منه أمير المؤمنين من الهمِّ الشديد والتخوف على المسلمين

وإذا كان عمر رضي الله عنه كذلك فإن عموم الصحابة رضي الله

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٢ من رواية سيف بن عمر .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٢٠ .

عنهم في المدينة قلوبهم مع إخوانهم في نهاوند ودعاؤهم لهم متواصل، ولا شك أن لذلك الدعاء المبارك أثرًا في نزول نصر الله تعالى على عباده المؤمنين .

إنهم يؤمنون إيمانًا راسخًا بأن الأمر بيد الله تعالى وحده . والدعاء الخالص إذا صدر من قلوب مؤمنة مخلصة مستحضرة عظمة الله تعالى وضَعْفَ خلْقه فإنه سبب مهم من أسباب النصر على الأعداء.

ولهذا فإن المسلمين الذين حضروا ميدان المعركة كانوا ثلاثين ألفا، ولكن الذين شاركوا في المعركة بدعائهم الصالح كانوا عشرات الألوف من المسلمين في المدينة وسائر أمصار الإسلام .

وإن شعور المسلم وهو يتوجه إلى ميدان المعركة بأن الذين سيشاركونه بقلوبهم وابتهالهم إلى الله تعالى هم عموم المسلمين في كل أقطار الأرض . . إن شعوره هذا يجعله يدخل المعركة وهو واثق من نصر الله تعالى ، إذا تجرد المجاهدون من عوائق النصر .

أما وقع خبر المعركة على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقد كان مزيجًا من الفرح بالنصر ، والبكاء على فراق الأحبة من الشهداء.

وقد أخذ به الهمُّ مأخذه في تلك الليالي حتى بلغه خبر انتصار المسلمين ، يصوِّر ذلك ماجاء في إحدى الروايات التي أخرجها الإمام الطبري وفيها « وتململ عمر تلك الليلة التي كان قدِّرُ لقائهم - يعني لقاء المسلمين مع أعدائهم - وجعل يخرج ويلتمس الخبر فبينما رجل من المسلمين قد خرج في بعض حوائجه ، فرجع إلى المدينة ليلا ،

فمر به راكب في الليلة الثالثة من يوم نهاوند يريد المدينة فقال : ياعبد الله من أين أقبلت ؟ قال : من نهاوند ، قال : ما الخبر ؟ قال : الخبر خير فَتَح الله على النعمان واستشهد ، واقتسم المسلمون فيء نهاوند فأصاب الفارس ستة آلاف ، وطواه الراكب حتى انغمس في المدينة ، فدخل الرجل فبات فأصبح فحدث بحديثه ونمى الخبر حتى بلغ عمر وهو فيما هو فيه ، فأرسل إليه فسأله فأخبره ، فقال : صدق وصدقت ، هذا عُثَيم بريد الجن وقد رأى بريد الإنس ، فقدم عليه «طريف» بالفتح بعد ذلك فقال : ما الخبر ؟ قال : ماعندي أكثر من الفتح خرجت والمسلمون في الطلب وهم على رِجْل - يعني أنهم جادون في مطاردة أعدائهم - وكتمه إلا ما سرَّه - يعني أنه أخبر بما يسُرُّه من الفتح وكتم خبر استشهاد النعمان لتوقعه بأنه سيتأثر من ذلك- [1] .

وفي هذا الخبر تصوير لما كان يعاني منه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من الهمِّ المتواصل حول نتائج تلك المعركة الحاسمة إشفاقًا منه على المسلمين ، حتى وافق ليلة المعركة قمةُ اشتداد الهمِّ عنده .

وفي هذا الخبر مثل من تسخير الله سبحانه ماشاء من خلقه ليكونوا في خدمة أوليائه ، فلما كان الجن أسرع من الإنس في قطع المسافات حمل بريد الجن الخبر مع بريد الإنس فسبقه بعدة أيام ، وكان في تلك الأيام راحة وطمأنينة للمؤمنين ، خاصة أمير المؤمنين عمر الذي كان أبلغهم همّاً وأكثرهم تفكيراً في ذلك الأمر .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٣٤ .

لقد كان مسلمو الجن في خدمة إخوانهم من مسلمي الإنس من غير أن يسعى لذلك المسلمون تكريمًا من الله تعالى لأوليائه المؤمنين .

وهكذا بلغ خبر الفتح أمير المؤمنين عمر ،ولم يبلغه خبر استشهاد النعمان بن مقرن لأن طريفًا المرسل بذلك أخبر أمير المؤمنين بما يسره من الفتح وطوى عنه ما يؤلمه من خبر الشهداء ، ولكن خبر الشهداء بلغ أمير المؤمنين مع السائب بن الأقرع الذي كان موكَّلاً بقسمة الغنائم، وقد ذكر الإمام الطبري خبر ذلك من رواية السائب قال : قدمت على عمر بن الخطاب فقال : ماوراءك ياسائب ؟ فقلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله عليك بأعظم الفتح واستشهد النعمان ابن مقرِّن رحمه الله - فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون ، قال : ثم بكى فنشج حتى إني لأنظر إلى فروع منكبيه من فوق كتده - يعني مجتمع الكتفين - قال : فلما رأيت مالقي قلت : والله يا أمير المؤمنين ما أصيب بعده من رجل يُعرف وجهه، فقال : ألمستضعَفون من المسلمين ! لكن الذي أكرمهم بالشهادة يعرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! [1] .

وفي هذا الخبر موقفان جليلان ؟ أحدهما شفقة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على رعيته وحزنُه على مصابهم ، خاصة من كانوا مؤهلين للقيادة ، فقد بكى بكاء شديدًا على النعمان بن مقرن رضي الله عنه حين علم باستشهاده ، مع علمه بفضل الشهادة ، وأنها أمل المؤمنين الصادقين، لكنه يعلم أن أمور الأمة إنما تنتظم بالقادة الأكفاء ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١١٦ .

فلذلك حزن هذا الحزن الشديد على فقد النعـمان كما حزن قبل ذلك على فقد أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم أجمعين .

ومن هذا البـاب ماجـاء في رواية ابن أبي نجيح : قـال عمـر بن الخطاب لجلسائـه : تمنَّوا ، فتمنوا ، فـقال عمـر بن الخطاب : لكني أتمنى بيتا ممتلئًا رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح [1] .

واختيار عمـر للولاة والقادة الأكفاء كان سببًا مـهمّـًا من أسباب نجاحه في الحكم واستقرار الأمور في عهده .

أما الموقف الثاني فهو في تأثره لمـا قال له السائب : والله يا أمير المؤمنين مـا أصـيب بـعـده من رجلٍ يعـرف وجـهـه ، حـيث قـال المستضـعـفون من المسلمين ! لـكنَّ الذي أكرمـهم بالشـهادة يعـرف وجوههم وأنسابهم ، وما يصنعون بمعرفة عمر ابن أم عمر ! فقد أدرك حـالاً خطورة هذه الفهم الذي فـهمـه السـائب ، وهو أن الذين يُنظر لهم، ويُهتمّ بأمر وجودهم أو فقـدهم هم وجوه الناس المعروفون لدى الخليفة وولاته وقادته .

ولما كـان في ذلك الخـوفُ من الرجـوع إلى عرف الجـاهليـة في التـمـيـيز بين الناس في الحـقوق مع تسـاويهم في الأداء ، وربط هذه الحقوق بمدى قربهم من القادة والولاة . . لما كان في كلام السائب نوع من التلميح لذلك غيـر المتعمد أنكره عمر بشـدة وحزم ، وربط الأمر كله بعلم الله تـعالى، فـهـو الذي خلق عبـاده هؤلاء ، ومنَّ عليـهم بالهدايـة ثم أكرمهم بالـشهادة ، وهو الذي يتـولى مكافأتهـم على ما قدموا من عمل في الآخرة.

---

(١) طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٣ .

ثم أكد هذا المعنى بالتقليل من شأن معرفة عمر بهم ، وأن معرفته ببعض المسلمين لاتغني عنهم من الله شيئا، وجهله ببعضهم لا يضرهم عند الله تعالى .

وفي التعبير بقوله « ابن أم عمر » تواضع جليل من رجل كبير فإن الانتساب إلى الأم يدل على التواضع حيث إن من عادة العرب أن يفتخروا بآبائهم .

وإنه له أسوة حسنة برسول الله ﷺ حيث قال للرجل الذي ارتعد خوفًا لما جاء يكلمه « هوِّن عليك فإني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » (١) .

ولقد كان درسًا عاليًا في مكارم الأخلاق وعاه عمر وغيره من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

(١) دلائل النبوة ٥/ ٦٩ .

٨ – فتح أصبهان –

جرت بين المسلمين والفرس حروب بعد معركة نهاوند وذلك فيما جرى في فتح أصبهان ، وقد كان ذلك بقيادة عبد الله بن عبد الله بن عتبان، وقد التقى المسلمون بأعدائهم وكانوا تحت قيادة « الأستَنْدار» فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، ثم خرج قائد مقدمة الفرس للبراز وهو شهربراز جاذويه فبرز له عبد الله بن ورقاء الأسدي ، فقتله عبد الله وانهزم أهل أصبهان ، ودعا قائدهم الأستَنْدار إلى الصلح فصالحهم المسلمون.

ثم سار عبد الله بن عتبان بجيشه نحو مدينة « جَيّ » بأصبهان ومَلِكُ أصبهان يومئذ « الفاذوسفان » فحاصرهم المسلمون واقتتلوا معهم في عدة لقاءات ، فقال الفاذوسفان لعبد الله : لا تقتل أصحابي ولاأقتل أصحابك ، ولكن ابرز لي فإن قتلتك رجع أصحابك وإن قتلتني سالمك أصحابي ، فبرز له عبد الله وقال : إما أن تحمل عليَّ وإما أن أحمل عليك، فقال : أحمل عليك ، فوقف له عبد الله ، وحمل عليه الفاذوسفان فطعنه فأصاب سرج فرسه ، فوقع عبد الله قائمًا ، ثم استوى على الفرس عُرْيًا وقال له : اثبت ، فحاجزه وقال : ما أحب أن أقاتلك فإني قد رأيتك رجلاً كاملاً ، ولكن أرجع معك إلى عسكرك فأصالحك[1].

وهكذا رأينا كيف أن براعة المسلمين في مجال المبارزة أكسبتهم هاتين المعركتين وفتحوا بذلك هذا الإقليم المهم ، وفي الخبر الأخير

---

(١) تاريخ الطبري ١٣٩/٤ – ١٤٠ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه، بتصرف .

بيان أهمية اختيــار القادة حيث إن من الصفات اللازمة لذلك أن يكون القائد شجاعًا ذا مقدرة فائقة في فنون الحرب ، فقد رأينا كيف أن عبد الله بن عتبان وقع من فرسه قـائمًا ولم يسقط لما سقط سرج الفرس ، وقد أذهلت هذه الحـركة الرياضيــة الممتازة قـائد الفرس فاسـتسلم له واعتــرف برجوليـته الكاملة، وهذا يدل على أن المسلمـين آنذاك كانوا يهتمون كثيرًا بالتدريبات العسكرية المتوفرة في مجتمعهم ، إلى جانب ماتفوقوا به في مجال الأخلاق والمعاملة ، فكانوا محط إعجاب العالم في ذلك الزمن.

ولقد وفر قادتهم وأبطالهم المقدَّمون كثيرًا من الجهد على جنودهم بما قدموا من تضحيات في مـجالات المبارزة واقتـحام المناطق الخطرة والتخطيط الحربي المحكم ، بينما كـان قادة أعدائهم يَزُجُّون بجنودهم في مواقع الخطر بأعدادهم الكثيفة ، وأحيانًا يقرنونهم بالسلاسل حتى لايفروا ، ولايبذل القادة شيئًا يُذكر في المجال الحربي ، فتكون النتيجة أنهم يُعرِّضون جندهم لمجازر هائلة يكون بعدها الفشل والهزيمة .

* * *

٩ – معركة « واج الرّوذ » –

ذكر الإمـام الطبري من حـديث سيف بن عمـر عن شيـوخه أن الأعـداء تكاتـبـوا من ثلاث جـهـات : الديـلم وأهل الري ، وأهل أذربيجان، فخرج أهل الديلم بقيادة « موتا » حتى نزل بـ« واج روذ»، وأقـبل الزينبي أبو الفَرُّخَـان في أهل الري حـتى انضم إليه ، وأقـبل إسـفَنْدياذ أخورسـتم في أهل أَذْرَبيـجان حـتى انضم إليه ، وتحـصن المسلمون في « دَسْتَبَى » وبعثوا إلى نُعَـيم بن مقرِّن بالخبر ، وكان في همذان في اثنى عشر ألفا من الجند .

وكتبوا إلى عمر باجتماعهم ففزع منها عمر واهتم بحربها .

وهكذا اجتمـعت هذه الجيوش لحرب المسلمين بعـدما رجع منهم من رجع بعد نهاوند ، ولم يبق مع نعـيم بن مقرن رضي الله عنه إلا هذا العدد القليل بالنسبة لكثرة أعدائهم .

فهل من الرأي أن يُقْدم المسلمـون على معركة غير مـتكافئة ؟ أو ينسحبوا ويطلبوا المدد من أمير المؤمنين ؟

فالإقدام على المعركـة مغامرة ، خاصة وأن أحـد الجيوش الثلاثة وهم الديلم يقـاتلون المسلمين لأول مـرة ، ولاشك أن الذين خبـروا قوة المسلمين ، وجربوا الهزائم على أيديهم سـيكونون أضعف أمامهم من الذين يقاتلونهم لأول مرة .

ولكن نُعيـمًا البطل المقدام لم يجـعل في الأمر خيـارًا ، بل أقدم على المسيـر إليهم ، لا إقدام المتـهور ، بل إقدام من حَـسُنَ ظنه بالله تعالى ، وعظمت ثقـته بنصر أوليائه ، وإقدام من عظـمت ثقته بإيمان

جنده واندفاعهم نحو التضحية بكل طاقتهم .

وقد استخلف نعيم بن مقرن يزيد بن قيس على ولايته ، وخرج إلى الأعداء بالجيش ، حتى نزل عليهم بـ « واج الروذ » فاقتتلوا بها قتالا شديدًا ، وكانت وقعة عظيمة تعدل « نهاوند» ولم تكن دونها ، وقُتل من الأعداء أعداد كبيرة لايُحصون ، ولاتقصر ملحمتهم من الملاحم الكبار.

وقد كان أمير المؤمنين عمر مُهتَمّـًا بحربهم ، ويتوقع ما يأتيه منهم، فلم يفجأه إلا البريد بالبشارة ، فقال : أبشير ؟ فقال : بل عروة، فلما ثنَّى عليه ، أبشير ؟ فطِن فقال : بشير ، فقال عمر : رسول نعيم؟ قال: رسول نعيم ، قال : الخبر ؟ قال : البشرى بالفتح والنصر ، وأخبره الخبر ، فحمد الله وأمر بالكتاب فقُرئ على الناس، فحمدوا الله .

ثم قدم سماك بن مخرمة وسماك بن عبيد وسماك بن خَرَشَة في وفود من وفود الكوفة بالأخماس على عمر ، فنسبَهم، فانتسب له سماك وسماك وسماك ، فقال : بارك الله فيكم ، اللهم اسمك بهم الإسلام، وأيدهم بالإسلام (١) .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/١٤٨ ، بتصرف .

١٠ - فتح الري -

أخرج الإمام أبو جعفر الطبري عن شيوخه قالوا : وخرج نُعَيم ابن مقرّن من و اج رُوذ في الناس - وقد أخربها - إلى دَسْتَبَى ، ففصل منها إلى الري ، وقد جمعوا له ، وخرج الزينبيّ أبو الفَرُّخان، فلقيه الزينبي بمكان يقال له قَهَا مسالمًا ومخالفًا لملك الريّ ، وقد رأى من المسلمين ما رأى مع حسد سياوَخْش وأهل بيته ، فأقبل مع نُعيم والملك يومئذ بالريّ سياوَخْش بن مهران بن بهرام شوبين ، فاستمدّ أهلَ دُنْباوَند وَطبرستان وقُومس وجُرْجان . وقال : قد علمتم أن هؤلاء قد حلُّوا بالريّ ، إنه لامقام لكم ، فاحتشدوا له ، فناهده سياوَخْش ، فالتقوْا في سَفْح جبل الريّ إلى جنب مدينتها ، فاقتتلوا به ، وقد كان الزينبي قال لنُعيم : إنّ القوم كثير ، وأنت في قلّة ، فابعث معي خيلاً أدخل بهم مدينتهم من مدخل لايشعرون به ، وناهدْهم أنت ، فإنهم إذا خرجوا عليهم لم يثبتُوا لك . فبعث معه نُعيم خيلاً من الليل ، عليهم ابن أخيه المنذر بن عمرو، فأدخلهم الزينبي المدينة ، ولايشعر القوم ، وبيَّتهم نُعيم بياتًا فشغلهم عن مدينتهم ، فاقتتلوا وصبروا له حتى سمعُوا التكبير من ورائهم . ثمّ إنهم انهزموا فقُتلوا مقتلةً عُدّوا بالقَصب فيها [١]، وأفاء الله على المسلمين بالرّي نحوًا من فئ المدائن ، وصالحه الزينبي على أهل الريّ ومَرْزَبه[٢] عليهم نُعيم ، فلم يزل شرف الريّ في أهل الزينبي الأكبر ، ومنهم شَهْرام وفَرُّخان ، وسقط آل بهرام ، وأخرب نُعيم مدينتهم ،

(١) يعني لكثرة قتلاهم لم يمكن عدُّهم إلا بقياس مكانهم بالقصب .

(٢) مرزبه عليهم ، أي ولاه مرزبانًا عليهم . والمرزبان : رئيس الفرس .

وهي التي يقال لهـا العتيـقة - يعني مدينة الرّي - وأمـر الزينبي فبنى مدينة الرّي الُحدْثَـى . وكتب نُعيم إلى عمر بالذي فـتح الله عليه مع المضارب العجليّ ، ووفّد بالأخماس مع عُـتيبة بن النّهاس وأبي مفزّر في وجوه من وجوه أهل الكوفة [1] .

وهذا الذي قرره نعيم بن مـقرن من قبول معونة الفَـرُّخان وضمّه وجنوده إلى الجيش الإسـلامي رأي سديد ، لأنه قوة تضـاف إلى قوة المسلمين ، إضافة إلى كونه من أهل البـلاد ، فهو بهذا ينفع المسلمين برأيه، كما جرى في هذا الخبر .

ولكن هذا الأمر ليس مـشروعًا علـى إطلاقه ، بل لابد أن تكون القيـادة للمسلمين ، وأن تكون قوتهم أعظم من قـوة حلفائهم ، وأن يتأكـد لهم صدق مُحَـالفيهم . . إلى غـير ذلك من الضـمانات التي تضمن خضـوع هؤلاء الأعداء للمسلمين سواء في حـال انتصارهم أو هزيمتهم .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٥٠ .

١١ - فتح الباب -

أخرج الإمام محمد بن جرير الطبري عن شيوخه قالوا : ردّ عمرُ أبا موسى إلى البصرة ، وردّ سراُقة بن عمرو - وكان يُدعَى ذا النور - إلى الباب ، وجعل على مقدّمته عبد الرحمن بن ربيعة - وكان أيضًا يُدعَى ذا النور - وجعل على إحدى المجنّبتين حُذَيفة بن أسيد الغفاريّ، وسَمَّى للأخرى بكير بن عبد الله الليثيّ - وكان بإزاء الباب قبل قدوم سُراقة بن عمرو عليه ، وكتب إليه أن يلحق به - وجعل على المقاسم سَلْمان بن ربيعة .

فقدّم سُراقة عبد الرحمن بن ربيعة ، وخرج في الأثر ، ولما أطلّ عبد الرحمن بن ربيعة على الملك بالباب - والملك بها يومئذ شهربراز ، رجل من أهل فارس ، - كاتبه شهربراز ، واستأمنه على أن يأتيه ، ففعل فأتاه، فقال إنّي بإزاء عدوّ كَلب وأمم مختلفة ، لايُنْسَبون إلى أحساب، وليس ينبغي لذي الحسب والعقل أن يُعين أمثال هؤلاء ، ولايستعين بهم على ذوي الأحساب والأصول، وذو الحسب قريب ذي الحسب حيث كان، ولست من القبْح في شيء، ولا من الأرمن، وإنكم قد غلبتم على بلادي وأمتي ، فأنا اليوم منكم ويدي مع أيديكم، صَغْوِي [١] معكم ، وبارك الله لنا ولكم ، وجزيتنا إليكم النصر لكم ، والقيام بما تحبّون ، فلا تذلّونا بالجزية فتوهنونا لعدوّكم.

فقال عبد الرحمن : فَوْقي رجلٌ قد أظلك فسرْ إليه ، فجوّزه ، فسار إلى سُراقة فلقيَه بمثل ذلك ، فقال سراقة : قد قبلت ذلك فيمن

(١) يعني ميلي .

كان معك على هذا ما دام عليه ، ولابدّ من الجزاء ممّن يقيم ولاينهض. فقبل ذلك ، وصار سنّة فيمن كان يحارب العدوّ من المشركين ، وفيمن لم يكن عنده الجزاء ، إلا أن يستنفروا فتُوضع عنهم جزاء تلك السنة . وكتب سُراقة إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فأجازه وحسَّنه .

وقد وجه سراقة بن عمرو عددا من السرايا لفتح تلك البلاد ، ثم مات رحمه الله تعالى واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة .

هذا وقد ذكر الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر عن شيوخه أن عبد الرحمن بن ربيعة أقره أمير المؤمنين على قيادة الجيش الذي وجهه لفتح الباب بعد موت سراقة بن عمرو فخرج عبد الرحمن بالناس حتى قطع الباب - وولاية الباب هي آخر حامية لدولة الفرس من ناحية الشمال- فقال له شهربراز - وهو ملك ولاية الباب الذي صالح المسلمين- قال له : ما تريد أن تصنع ؟ قال : أريد « بَلَنْجر » قال : إنا لنرضى منهم أن يدعونا من دون الباب ، قال : لكنا لانرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم ، وتالله إن معنا لأقوامًا لو يأذن لنا أميرنا في الإمعان لبلغْتُ بهم الرَّدْم - يعني سد يأجوج ومأجوج - قال وماهم؟ قال : أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ، ودخلوا في هذا الأمر بنيَّة ، كانوا أصحاب حياء وتكرم في الجاهلية فازداد حياؤهم وتكرمهم ، فلا يزال هذا الأمر دائمًا لهم ، ولايزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم ، وحتى يُلفَتوا عن حالهم بمن غَيَّرهم [1] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٥٥ - ١٥٨ ، بتصرف .

وهذا وصف دقيق من عبد الرحمن بن ربيعة لحال الصحابة رضي الله عنهم ، وبيان لبعض عوامل النصر ، فمن ذلك دخول الجهاد بنية خالصة ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعزاز دينه ، فإذا تغيرت النية لإرادة الدنيا أو الجاه فإن النصر غير مضمون ، بل ربما أنزل الله عقوبته على هؤلاء الذين بدَّلوا نياتهم ، وخادعوا المسلمين .

ومن ذلك صلاح الولاة وعدلهم ، فإذا كانت نية الولاة صادقة في إعزاز الإسلام وتقوية دولته ، وأصبحت سيرتهم عادلة فإن أصحاب العناصر الزكية ممن تحت ولايتهم تكون لهم الكلمة والقيادة ، فبذلك تبرز طاقاتهم الكبيرة ، ويكون التنافس في الأعمال الصالحة ، ويستمر الجهاد قائمًا وحيّـًا في النفوس .

ومن كانت هذه صفاتهم وصفات ولاتهم فإنهم لايُغلبون بإذن الله تعالى ، ولايحول دون طموحاتهم حائل حتى تتحقق دولة الإسلام الكبرى، وتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

قال : فغزا - يعني عبد الرحمن بن ربيعة - بَلَنجَر غزاة في زمن عمر لم تَئِمْ فيها امرأة ، ولم يَيْتَم فيها صبي ، وبلغ خيله في غزاتها «البيضاء» على رأس مائتي فرسخ من بلنجر ، ثم غزا فسَلم ، ثم غزا غزوات في زمان عثمان ، وأصيب عبد الرحمن حين تبدَّل أهل الكوفة في زمان إمارة عثمان ، لاستعماله من كان ارتد استصلاحًا لهم ، فلم يصلحهم ذلك ، وزادهم فسادًا أنْ سَادَهم من طلب الدنيا ، وعضَّلوا بعثمان حتى جعل يتمثل :

وكنت وعمرًا كالمُسَمِّن كَلْبَه ... فخَدَّشَه أنيابُه وأظافره

وفي رواية أخرى عن سلمان بن ربيعة قال : لما دخل عليهم عبد الرحمن بن ربيعة حال الله تعالى بين الترك والخروج عليه ، وقالوا: ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت ، فتحصنوا منه وهربوا فرجع بالغُنْم والظفر ، وذلك في زمان إمارة عمر ، ثم إنه غزاهم غزوات في زمان عثمان ، ظفر كما كان يظفر ، حتى إذا تبدَّل أهل الكوفة لاستعمال عثمان من كان ارتد فغزاهم بعد ذلك، تذامرت الترك وقال بعضهم لبعض : إنهم لايموتون ، قال : انظروا وفعلوا ، فاختفوا لهم في الغياض ، فرمى رجل منهم رجلا من المسلمين غِرَّةً فقتله ، وهرب عنه أصحابه ، فخرجوا عليه عند ذلك ، فاقتتلوا فاشتد قتالهم ، ونادى منادٍ من الجو :صبرًا آل عبد الرحمن وموعدكم الجنة ،فقاتل عبد الرحمن حتى قُتل ، وانكشف الناس ، وأخذ الراية سلمان بن ربيعة، فقاتل بها، ونادى المنادي من الجو : صبرًا آل سلمان بن ربيعة ، فقال سلمان :أوَتَرَى جزعًا ! ثم خرج بالناس ، وخرج سلمان وأبو هريرة الدوسي على جيلان فقطعوها إلى جُرجان، واجترأ الترك بعدها ، ولم يمنعهم ذلك من اتخاذ جسد عبد الرحمن ، فَهُمْ يستسقون به حتى الآن (١) .

وهكذا تبين لنا أن فساد الولاة يؤثر على مستوى الجهاد، فبالرغم من كون عبد الرحمن بن ربيعة مايزال هو القائد فإن تَبَدُّل الأمراء في الأمصار المشرفة على الجهاد ، وتَوَلِّي من سبقت منهم ردَّة ، ثم لم يُعْرَف منهم بعد الولاية استقامة يُخَذِّل المجاهدين ويهبط من

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥٥ - ١٥٩ .

معنوياتهم، ويتيح الفرصة لمن كان منهم له ميل إلى الدنيا إلى استعجال الفرصة، لينال نصيبه من ذلك بالوساطات الهَرَمِيَّة المعروفة عند أهل الدنيا .

وبهذا نعرف شيئًا من الحكمة في السُّنَّة التي مضى عليها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في منع تولية من سبقت ردتهم وإن حسن إسلامهم على أكثر من مائة كما سبق، وهما مجتهدان في ذلك، وعثمان رضي الله عنه مجتهد في محاولة استصلاح هؤلاء ، ولكن الحق فيما ذهب إليه أبو بكر وعمر من ذلك، وقد تبين لعثمان الآثار السيئة التي ترتبت على إسناد الأمر لمن سبقت ردتهم، كما هو ظاهر في الرواية .

وفي هذه الرواية بيان لعمق إدراك الرواة آنذاك وقوة توحيدهم، فإن السبب الظاهر في تحليل هذه الوقائع أن الترك قد انخدعوا بالمسلمين حيث ظنوا أنهم لايموتون ، ثم إنهم قاموا بتجربة تَبَيَّن لهم منها أنهم يموتون فتجرؤوا على قتالهم ، ولكن السبب الخفي هو معية الله جل وعلا لأوليائه بالنصر والتأييد ، وتسخير قلوب الأعداء لهيبة المسلمين والرعب منهم ، حينما كان وُلاتهم من أهل الصلاح والتقوى، فحينما تغيَّر هؤلاء الولاة فأصبحوا من أهل الدنيا ، وتغير بعض الجند بتغيُّرهم تخلَّى الله تعالى عن نُصرتهم ، فانتُزعت الهيبة من قلوب أعدائهم وتجرؤوا عليهم .

أما الدلائل الظاهرة لتغير بعض الجند فمنها كما جاء في هذه الرواية هربهم من العدو حينما قتلوا رجلاً منهم ، وهربهم لما قُتل

قائدهم أثناء المعركة ، والمسلمون في ذلك العهد لم يكونوا يهربون أبدًا من عدوهم، بل كان الواحد منهم يقابل رهطًا من الأعداء ، فيثبت لهم ، فكان الهرب أول علامات الانهزام التي جَرَّأتْ أعداءهم عليهم .

وقول الترك « ما اجترأ علينا هذا الرجل إلا ومعه الملائكة تمنعه من الموت» باعثه انتصارات المسلمين المتوالية وقضاؤهم على أعظم امبراطورية في نصف الأرض الشرقي ، واقتطاعهم أهم ممالك الامبراطورية الأخرى في الغرب ، ثم أهم من ذلك انتصاراتهم الخارقة للعادة كما في معركة اليرموك ونهاوند ، حيث يغلب على ظن المتأمل فيها أن الملائكة عليهم السلام كانت تقاتل مع المؤمنين .

ولقد كان لهذا الاعتقاد أثر فعال في توهين الأعداء كما هو الحال في هذه الموقعة مع الترك .

ومن هذه المواقف المثيرة في هذا الخبر ما كان من نداء الملائكة عليهم السلام حيث قالوا : « صبرًا آل عبد الرحمن فإن موعدكم الجنة» .

وفي هذا دلالة على أن الله تعالى قد كتب لهم الشهادة في تلك المعركة ولم يكتب لهم النصر ، وذلك لتخلُّف بعض عوامل النصر المعروفة حيث مال بعض الجند إلى الدنيا ، ولم يتجردوا للآخرة فضعُف صبرهم وثباتهم ، وأصبحت رَحَى الحرب تدور على أهل الثبات والبلاء، فاستُشهد من استشهد في تلك المعركة رضي الله عنهم.

ومـوقف آخر يـدلنا على عظمـة المسلمين في قلوب أعـدائهم ، حـيث كان أولئك القـوم يقـدِّسون جـسـد عبـد الرحـمن بن ربيعـة فيستمطرون به الغمـام ، حيث لم تأكل الأرض جسده ، ولم يتعرض للتعفُّـن ، وهذا دليل على صدقه وصلاحه رحـمه الله ، ولاشك أن ذلك كان من دوافع إقبالهم على الإسلام بعد ذلك .

* * *

١٢ - شهادتان لصالح المسلمين -

في أثناء هذه الفتوح صدرت شهادتان من الأعداء على عدل المسلمين ووفائهم وبيان سر عظمتهم وقوتهم .

فأولى الشهادتين صدرت من شهربراز ملك ولاية الباب الفارسية، وقد أخرج خبر ذلك الإمام الطبري من رواية مطر بن ثلج التميمي، وذكر قصة حضور الرجل الذي بعثه شهربراز لاستكشاف سد يأجوج ومأجوج وماذكر من صفته وأنه أعطى شهربراز ياقوتة أهداها إليه ملك تلك البلاد وأن شهربراز ناولها عبد الرحمن بن ربيعة قائد المسلمين في تلك الولاية وماحولها ، وأن عبد الرحمن نظر إليها ثم ردها إليه فقال شهربراز : لَهذه خير من هذا البلد - يعني الباب - وايْمُ الله لأنتم أحب إليَّ مِلْكَةً من آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها لانتزعوها مني ، وايْمُ الله لايقوم لكم شيء ماوفيتم ووفَى مَلِكُكم الأكبر[1].

هذا وإن قول شهربراز هذا شهادة حق للمسلمين من غيرهم ، فالمسلمون قد ملكوا قلوب العالم آنذاك بالعدل والوفاء وسائر مكارم الأخلاق ، بعدما أزالوا أصحاب الطغيان والهوى بالكفاح والجهاد المتواصل، فاشرأبَّت إليهم أعناق أهل الشهامة والوفاء ممن يقدِّرون مكارم الأخلاق ، وينفرون من البغي والعدوان ، فوجدوا في المسلمين ضالَّتهم المنشودة ، حيث وجدوا وُلاتَهم يُشكِّلون هرمًا متناسبًا في تمثيل هذه المكارم ، من إمامهم الأكبر إلى أصغر والٍ فيهم ،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٥٩ - ١٦٠ ، بتصرف .

وأصبحت مكارم الأخلاق هي السِّمَة البارزة في أفراد المسلمين في أي بقعة حلُّوها، وتضاءل وجود أصحاب الهوى والبغي ، واضطروا إلى الاستخفاء بميولهم المنحرفة حتى لايُكشَفوا فتقع عليهم العقوبة الرادعة .

فَبُرُوز أصحاب الشهامة والعدل والوفاء والتواضع ، واختفاء أصحاب الأثرة والبغي والكبرياء ظهر المجتمع الإسلامي وكأن كلَّ أفراده ممن يمثلون الرقي الأخلاقي في جميع أبعاده .

وهذه ظاهرة خلاَّبة بهرت الأمم، فسارع كل من مَلَكَ حريته إلى الدخول في الإسلام، أو على الأقل إلى إبرام الصلح مع المسلمين والرضى بالدخول تحت حمايتهم .

أما الشهادة الثانية فقد صدرت من ملك الصين، وذلك حينما أرسل له كسرى يطلب منه المدد والنصرة ، فجرت بينه وبين رسول كسرى محاورة جاء فيها قول ملك الصين : قد عرفتُ أن حقّا على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم فَصفْ لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم ، فإني أراك تذكر قلةً منهم وكثرةً منكم ، ولايَبلُغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشرٍّ فيكم ، فقلت : سلني عما أحببت ، فقال : أيوفون بالعهد ؟ قلت: نعم، قال: ومايقولون قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت : يدعوننا إلى واحدة من ثلاث ، إما دينهم فإن أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة أوالمنابذة ، قال : فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدهم، قال فما يحلُّون وما يحرِّمون؟

فأخبرته ، فقال: أيحرمون ماحُلِّل لهم أو يحلُّون ماحُرِّم عليهم ؟ قلت :لا ، قال : فإن هؤلاء القوم لايهلكون أبدًا حتى يُحلُّوا حرامهم ويُحرِّموا حلالهم ، ثم قال : أخبرني عن لباسهم، فأخبرته ، وعن مطاياهم ، فقلت : الخيل العراب - ووصفتها- فقال: نعْمَت الحصون هذه ، ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دوابَّ طوال الأعناق .

وكتب معه كتابًا إلى يزدجرد : إنه لم يمنعني أن أبعث إليك بجيش أوَّله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق عليَّ ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها، ولو خُلِّي سرَبهُم أزالوني ماداموا على ماوصف فسالمْهُم،وارْضَ منهم بالمساكنة ولاتَهِجهم مالم يَهِجُوك . ذكره الإمام الطبري من رواية سيف بن عمر بإسناده عن الوازع بن زيد بن خُلَيدة [1] .

وهكذا شهد ملك الصين للمسلمين بالقوة والعظمة وامتلاك أسباب التمكين في الأرض ، وماجاء في هذه الاستفسارات والنتائج المرتبة عليها يدل على سعة عقل ملك الصين وخبرته الدقيقة بعوامل انتصار الأمم وعوامل انهزامها .

وقد أشار إلى بعض العوامل التي كانت سببا في انتصار المسلمين وتمكينهم في الأرض ، فمن ذلك :

١ - وفاؤهم بالعهد ، وذلك أن الوفاء بالعهد دليل على الالتزام بمبدإ قوي مهيمن ، لاتتلاعب به الأهواء ، وهذا المبدأ يفرض احترام

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٢ - ١٧٣ .

أصحابه على الناس ، ويبعث على هيبتهم ، فأما لو نقض المسلمون العهود فإنهم يصبحون كغيرهم ممن تُسيِّرهم أهواؤهم أو أهواء من يعملون لهم ، وبالتالي تزول هيبتهم عند الأمم ويطمعون في الاستيلاء على بلادهم .

٢ - أن أول خصلة يدعو إليها المسلمون هي دخول أعدائهم في الإسلام ، وأنهم إذا دخلوا فيه كانوا كالمسلمين تماما، وأصبحت لهم بلادهم وسائر حقوقهم ، بل أصبحوا جديرين بأن يُفرض لهم العطاء كبقية المسلمين ، بدلاً من أن تؤخذ منهم الجزية ، وإن هذا وحده ليدل على أن المسلمين لم يخرجوا من بلادهم لطلب ملك أو للإفساد في الأرض، وهذا يجعل جنود الأعداء يقاومون المسلمين بضعف لعلمهم بأنهم دعاة إصلاح ، وقد يتأكد لديهم أن إنقاذهم من ظالميهم سيكون على يد هؤلاء الذين وُجِّهوا لقتالهم ، ولهذا العامل وغيره كان الكفار دائمًا ضعفاء أمام المسلمين في ذلك الزمن .

ولقد كان أكثر أفراد الأمم سعادة آنذاك هم الذين دخلوا في الإسلام، ثم يليهم في ذلك الذين دفعوا الجزية ودخلوا في حماية المسلمين ، لأنهم لمسوا عدل المسلمين ورحمتهم بالمقارنة بما كانوا عليه من ظلم ولاتهم السابقين .

٣- طاعة الجنود لقادتهم ، والمسلمون الأوائل في هذه الخصلة لانظير لهم في الأمم ، ذلك أنهم يعتبرون طاعة القائد من طاعة الله تعالى ما لم يأمر بمعصية ، وهذا لا يوجد في غير الإسلام ، ولذلك قال رسول كسرى في وصفهم « هم أطوع قوم لمرشدهم » .

٤ - الالتزام الكامل بالدين الذي من أجله قاتل المسلمون ، فإن المسلمين إذا التزموا بأوامر الدين فأحلُّوا ما أحل الله وحرموا ماحرم الله تعالى فإنه جل وعلا يكون معهم ، ومن كان الله معه فإنه لايُغلب أبدًا، وبعد هذا فإن قوة المسلم في جهاده إنما تنبع من كونه يدافع عن عقيدة صحيحة مهيمنة على مشاعره ، وهُولَها في غاية الاحترام والتعظيم ، فإذا أخلَّ بهذه العقيدة فإن قوته تضعف كثيراً لأنه يشبه والحال هذه من يقاتل بلا عقيدة ، وإنما يقاتل من أجل الوطن أو المال وغير ذلك من المنافع الدنيويه .

ولقد أدرك ملك الصين خطر مخالفة الدين الذي من أجله كان القتال والانسياح في الأرض ، حيث قال : « فإن هؤلاء القوم لايهلكون أبدًا حتى يُحلُّوا حرامهم ويحرموا حلالهم » .

ومن الذي يستطيع من الأعداء أن يحمل المسلمين على هذه المخالفة؟

إنه لايمكن أن يتم شيء من ذلك إلا بإرادة المسلمين أنفسهم، ولذلك كان مما يشبه المستحيل أن يستطيع الأعداء التغلب على المسلمين ما لم يكونوا هم بأنفسهم عونا على أعدائهم ، وذلك بالتفريط في أمور دينهم الذي هو مصدر عزهم ومكْمَنُ قوتهم .

وبعد هذه المساءلة قال ملك الصين في رسالته إلى كسرى : ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدُّوها، ولو خُلِّي سَرَبُهم أزالوني ماداموا على ماوصف - يعني لو خلِّي طريقهم إلى ملك الصين لأزالوه رغم قوته الذي ذكر .

وهذه العـوامل التي ذكـرها ملك الصين هي بعض عـوامل قـوة المسلمين ، وقد اكتسب معرفتها بالخبرة بأحوال الأمم .

هذا وإنَّ صدْق رسول كسرى في خبره عن المسلمين دليل على أن عامة الفرس كـانوا معجبين بالمسلمين ، ولذلك سارع كـثير منهم إلى الدخول في الإسلام منذ أن زالت دولة الطغاة عنهـم وأصبحوا أحراراً في تفكيرهم .

وصية من أمير المؤمنين عمر :

وماذكره ملك الصين من أن سر انتصار المسلمين المتكرر يكْمُن في التزامهم بدينهم قد أوصى به أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كثيراً ، فمن ذلك قوله - كما جـاء في سياق هذه الرواية - في خطبة له بعد ورود خبر انتصار المسلمين على الترك وعلى آخر جمع ليزدجرد ملك الفرس: إن الله تبارك وتعالى ذَكَر رسوله ﷺ وما بعثه به من الهدى، ووعد على اتباعـه منْ عاجل الثواب وآجله خير الدنيا و الآخـرة فقال له ﴿ **هُوَ الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [1] فالحمد لله الذي أنجز وعده ونصر جنده ، ألا إن الله قد أهلك مُلْكَ المجـوسية وفرَّق شملهم ، فلـيسوا يملكون من بلادهم شـبـرا يضـر بمسلـم ، ألا وإن الله قـد أورثكم أرضـهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كـيف تعملون ، ألا وإن المصْرَين - يعني البصرة والكوفة - من مسالحها اليومَ كأنتم والمصرَين من البُعْد - يعني أن فتـوحات أهل البصرة والكوفـة من البُعْد كَبُـعْد المدينتين عن المدينة المنورة - وقـد وغلوا في البلاد، والله بالـغ أمره ومنجـز وعده

(١) سورة الصف / ٩ .

ومتْبع آخـر ذلك أوَّله ، فقوموا في أمره علـى رِجْلٍ يُوفِ لكم بعهده ويؤتكم وعده ، ولاتُبدِّلوا ولاتغيروا فيستبدل الله بكم غيركم فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتَى إلا من قِبَلكم [1] .

فإن قول عمر رضي الله عنه « لينظر كيف تعملون » يشير إلى أن مامنَّ الله به على الأمـة الإسلامية من الفتـوح الواسعة ليس من أجل أن يتمتـعوا بفيئهـا وخيراتها ، وإنما من أجل أن يعمـروها بعبادة الله تعـالى، وفيـه إشـارة إلى أن بقاء مُلـك المسلمين وهيمـنتهم مـرهون بتنفيذهم شـريعة الله تعالى ، فإذا فرطوا وتهـاونوا في أمر الدين فإن الله سبحانه قد ينتزعها منهم ولو على يد الكفار عقوبة لهم، فلا يَغْتَرَّنَّ المسلمون بمملكتـهم الواسعة ، فـإنها ليست بيـدهم وإنما هي بيد الله تعالى أدالهم فـيها على من سـبقهم من الأمم ، والمسلمـون أحق بها وأجدر مادامـوا على الوفاء بالعهد والالتزام بأمـانة الدين ، فإذا خانوا العهد وضيعوا الأمانة فليسوا أهلا لقيادة الأمم وعمران الأرض .

من أمثلة أمانة جنود الإسلام :

ولقد كـان المسلمون آنذاك موضع الأمانة وأكـفاء المسئوليـة ولقد كانت عـفتهم عن الدنيـا مع قدرتهم على أخـذ المال من غير وجـهه الحلال دليلا على قوة إيمانهم وجـدارتهم بما أفاء الله جل وعلا عليهم من فتوح وانتصارات .

وإن من أمثلة أمانـتهم ماذكره الإمام الطبـري من طريق سيف بن عمر عن عاصم بن كُلَيب عن أبيه قال : خرجنا مع مجاشع بن مسعود

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٣ .

غازين «تَوَّج» فحاصرناها وقاتلناهم ما شـاء الله فلما افتتحناها وحوينا نَهْبَـها نهبًا كثـيرًا - يعني غنائمهـا - وقتلنا قتلَى عظيمـة، وكان عليَّ قميص قد تخرق فأخذت إبرة وسلكا وجـعلت أخيط قميصي بها، ثم إني نظرت إلى رجل في القـتلى عليه قـميص فنزعـته، فـأتيت به الماء فجعلت أضربه بين حـجرين حتى ذهب مافيه ، فلبستـه، فلما جُمعت الرِّثَّة -يعني الغنائم -قام مجاشع خطيبا فحمد الله وأثنى عليه، فقال: ياأيهـا الناس لاتغلُّوا فإن مـن غل جاء بما غل يوم القـيامـة، ردُّوا ولَو المخيط، فلما سمعت ذلك نزعت القميص فألقيته في الأخماس [1].

وهذا مثل شـاهد على أمانة جنـود الفتح الأوائل ، فبـالرغم من حقارة ذلك الثوب الذي أخـذه وحاجته إليه وماقام به مـن تنظيفه فإنه قد رده إلى الغنائـم ، وبهذه الأمانة بلغـوا ذلك المستـوى الرفيع الذي أهَّلهم للنصر على الأعداء والسيادة على العالم .

ولقد كـانت توصيات قادتهم تدور حـول هذا المعنى ، فمن ذلك قول عـثمان بـن أبي العاص بمناسبـة فتح « إصطخـر » إن هذا الأمر لايزال مقبلا ولايزال أهله معافَيْن مما يكرهون مالم يَغُلُّوا فإذا غلُّوا رأَوْا ما يكرهون، ولـم يَسُدَّ الكثير مَسَدَّ القليل اليوم .

وقال أيضًـا : إن الله إذا أراد بقوم خيـرًا كفَّهم ووفَّر أمـانتهم ، فاحفظوها فإن أول ماتفقـدون من دينكم الأمانة ، فإذا فقدتموها جُدِّد لكم في كل يوم فُقْدان شيء من أموركم [2] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٥ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٥ - ١٧٦ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

وإذا كان قـادة المسلمين على هذا النهج السـديد فليس غريـبا أن يستقيم جندهم وأن يعلو أمرهم .

* * *

١٣ - مواقف لبعض قادة المسلمين -

تبين لنا من الأخبار الماضية أمثلة عالية تظهر تفوق قادة المسلمين الأوائل وذلك فيما يتعلق بالرأي السديد والقوة والشجاعة ، مما يدل على أن الولاة كانوا يبذلون جهدا في اختيارهم للمهمات الحربية .

ونجد من أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري بإسناده عن الحكم ابن أبي العاص وكان قائدًا في إحدى معارك فارس قال: قصد إليَّ «شهرك» - يعني قائد الفرس - قال : فصعد إليَّ في الجنود فهبطوا من عقبة عليهم الحديد ، فخشيت أن تَعْشُوَ أبصار الناس فأمرت مناديا فنادى : أنَّ من كان عليه عمامة فليلفَّها على عينيه ، ومن لم يكن عليه عمامة فليغمض بصره [١] .

وهذا نوع من السداد في الرأي والحزم في العمل ، فإن انبهار الجنود بمنظر عدوهم المروِّع قد يكسر بعض ما في نفوسهم من الإقدام، وقد لفت انتباه القائد لمنظرهم وهم في دروع الحديد والسلاح كونهم نازلين من منحدر فهم مكشوفون بأجمعهم لجيش المسلمين بخلاف ما إذا كانوا وإياهم في أرض مستوية فإنما يرون مقدَّميهم فقط .

وقد يقول قائل : وهل يضمن القائد من جيشه أن يلتزموا بهذا الأمر فيغطوا أعينهم ؟

والجواب على ذلك أن طاعة أوامر القائد واجبة شرعًا عند المسلمين مادامت في حدود طاعة الله تعالى ، ولذلك فإن القائد يضمن تنفيذ أوامره بدون تكليف رقباء من الجنود يحافظون على

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٧٧ .

الالتزام ، وهذه ميزة كبرى يختص بها المسلمون الملتزمون بأوامر دينهم .

ومن أمثلة ذلك ما أخرجه الإمام الطبري أيضًا بإسناده أن عبيدالله ابن معمر وكان قائدًا في فتوح فارس خشي من أحد قادة الفرس الذين صالحوهم وهو « آذربيان » أن يغدر بالمسلمين فقال له : إني أحب أن تتَّخذ لأصحابي طعاما ، وتذبح لهم بقرة وتجعل عظامها في الجفنة التي تليني فإني أحب أن أتمشش العظام ، ففعل ، فجعل يأخذ العظم الذي لايكسر إلا بالفئوس فيكسره بيده فَيَتَمخَّخه [1] - وكان من أشد الناس - فقام الملك فأخذ برجله ، وقال : هذا مقام العائذ فأعطاه عهدا [2] .

وهكذا كفى عبيد الله بن معمر جيشه حربًا قد تضر بالمسلمين ، باستخدامه ماوهب الله تعالى من قوة بدنية ، فقد أرعب ذلك الأمير الفارسي بما رآه من قوته ، وتصور أن الذي كسر العظام الصلبة بيده قادر على تحطيم جماجمهم بسلاحه ، كما أن في هذا التصرف الذي قام به عبيد الله إشعاراً لهم بأنه مصمم على تحطيمهم لو نقضوا العهد كما حطم تلك العظام .

ومن الأمثلة الرائعة في الجمع بين سداد الرأي والشجاعة ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف بن عمر عن الوازع بن خُلَيدة قال: لما بلغ عمرَ غلبةُ الأحنف على المروَين وبلخ [3] قال : وهو

---

(١) أي يخرج مخه .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٧ .

(٣) قوله المرْوَين يعني مرو الروذ ومرو الشاهجان .

الأحنف وهو سيد أهل المشرق المسمَّى بغير اسمه (١) وكتب عمر إلى الأحنف : أما بعد فلا تجوزنَّ النهر ، واقتصر على مادونه ، وقد عرفتم بأي شيء دخلتم على خراسان ،فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدُمْ لكم النصر وإياكم أن تغيِّروا فتُفضُّوا .

ثم ذكر استنجاد ملك الفرس بملك الترك خاقان وأن ملك الترك أنجده وخرج بجيشه حتى عبر نهر بلخ إلى أن قال : وكان الأحنف حين بلغه عبور خاقان والصُّغد نهر بلخ غازيًا له خرج في عسكره ليلا يتسمع هل يسمع برأي ينتفع به ، فمر برجلين يُنَقِّيان علفًا ، إما تبنا وإما شعيرا، وأحدهما يقول لصاحبه : لو أن الأمير أسندنا إلى هذا الجبل فكان النهر بيننا وبين عدونا خندقا ، وكان الجبل في ظهورنا من أن نؤتى من خلفنا وكان قتالنا من وجه واحد رجوت أن ينصرنا الله، فرجع واجتزأ بها، وكان في ليلة مظلمة فلما أصبح جمع الناس ثم قال : إنكم قليل وإن عدوكم كثير فلا يَهُولَنّكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ، ارتحلوا من مكانكم هذا فأسندوا إلى الجبل فاجعلوه في ظهوركم واجعلوا النهر بينكم وبين عدوكم وقاتلوهم من وجه واحد ، ففعلوا وقد أعدوا ما يصلحهم ، وهو في عشرة آلاف من أهل البصرة ، وأهلُ الكوفة نحوٌ منهم .

وأقبلت الترك ومن أجلبت حتى نزلوا بهم ، فكانوا يغادونهم

---

(١) الأحنف هو ابن قيس التميمي وكان من سادة العرب وقد أُعجب أمير المؤمنين برأيه ومنطقه ثم أعجب بشجاعته ، وقد سمِّى الأحنف لحنف في رجله ولذلك قال عنه عمر« المسمى بغير اسمه » لأن الحنف الميل .

ويراوحونهم ، ويتنحَّون عنهم بالليل ما شاء الله ، وطلب الأحنف علمْ مكانهم بالليل ، فخرج ليلةً بعدما علم علمَهم طليعةً لأصحابه حتى كان قريبًا من عسكر خاقان فوقف ، فلما كان في وجه الصبح خرج فارس من الترك بطَوْقه وضرب بطبله ، ثم وقف من العسكر موقفا يقفه مثله ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز ويقول :

إن على كـل رئيس حقًّا   أن يخضب الصَّعْدة أو تنْدقَّا

إن لنا شيخا بها مُلَقىً   سيف أبي حفص الذي تبَقَّى

ثم وقف موقف التركي وأخذ طوقه ، وخرج آخر من الترك ففعل فعل صاحبه الأول ، ثم وقف دونه وحمل عليه الأحنف ، فاختلفا طعنتين فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

إن الرئيس يَرْتَبي ويطلعُ   ويمنع الخلاَّء إمَّا أربعُوا

ثم وقف موقف التركي الثاني وأخذ طوقه ، ثم خرج ثالث من الترك ففعل فعل الرجلين ووقف دون الثاني منهما ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف فقتله وهو يرتجز :

جَرْيَ الشَّموس ناجزًا بناجز   محتفلا في جَرْيه مشارز

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، ولم يعلم بذلك أحد منهم حتى دخله واستعدَّ ، وكان من شيمة الترك أنهم لايخرجون حتى يخرج ثلاثة، فخرجت الترك لَيْلَتئذ بعد الثالث ، فأتوا على فرسانهم مُقَتَّلين ، فتشاءم خاقان وتطير فقال : قد طال مقامنا ، وقد أصيب

هؤلاء القوم بمكان لم يُصَبْ بمثله قط ، مالنا في قتال هؤلاء القوم من خير فانصرِفوا بنا، فكان وجوههم راجعين [1] ، وارتفع النهار للمسلمين ولايرون شيئًا وأتاهم الخبر بانصراف خاقان إلى بلخ [2] .

وهكذا تبين لنا أن من النتائج الطيبة لحسن اختيار القادة أن المسلمين قد تجنبوا كثيرًا من المواجهات مع الأعداء ، وكفاهم قادتهم ذلك إما بالرأي السديد في إدارة المعركة أو في اختيار مكانها الملائم وإما بمواقف الشجاعة التي كسروا بها قلوب الأعداء ووفروا طاقة جنود المسلمين للمواجهات التي لابد منها .

ومن هؤلاء القادة العظماء هذا القائد الفذ الأحنف بن قيس الذي جمع بين سداد الرأي والشجاعة النادرة ، وهو مع ذلك لايَعْتَدُّ برأيه وإنما يلتمس الآراء حتى من عامة الجند الذين قد لايوصلون آراءهم لقادتهم ، فقد نزل هذا القائد إلى ميدانهم فصار يتسمَّع في الليل وهو يدور في مضارب الجيش علَّه يسمع رأيًا سديدًا يصير إليه في قتال الأعداء ، وحصل له ما أراد كما هو واضح في الخبر .

ثم هو بعد ذلك يُعمل فكره ويَسْهر الليل ليعرف واقع الأعداء وأحوالهم الدقيقة فلعل معرفته بذلك تدلُّه على مواطن ضعفهم ، وحيث إنه دقيق التفكير عظيم الهم لأمر جيشه وأمته فقد فضَّل أن يقوم هو بمهمة استكشاف أمر العدو ليلا ليعرف سر انسحابهم بعيدًا عن أرض المعركة .

---

(١) أي وجهوا وجوههم نحو الخلف راجعين .

(٢) تاريخ الطبري ٤/١٦٨ - ١٧٠ .

وقام بذلك وحده وهي مهمة شاقة خطيرة لايتصدى لها إلا عظماء الرجالُ ، واكتشف سر ذلك بخروج طليعتهم من الفرسان الثلاثة وقيامهم بدق الطبول على انفراد وتباعد ، الأمر الذي لايتم لهم لو بقوا في ميدان المعركة ، وقام بالقضاء عليهم الواحد تلو الآخر بشجاعة نادرة وجسارة عظيمة ، وقد ساعده على القيام بهذه المهمة بُعْدُ هؤلاء الفرسان عن قومهم بحيث لايرونهم ولايسمعون صوتهم ، وانفراد كل واحد منهم عن الآخر .

وبهذا نعلم أن قادة المسلمين كانوا أقرب إلى الأهوال والتضحيات من جنودهم ، وقد يكلِّفون بمثل هذه المهمة واحدًا أو أكثر من أصحاب الكفاءات الذين يثقون بإدراكهم وشجاعتهم ، ولكن قد يكون في ذهن القائد تخطيط معين مبني على إدراك أمور العدو ، ويرى أن غيره لايشفيه في هذه المهمة فيذهب لتحقيقها بنفسه كما هو الحال في هذه الواقعة .

ولاشك أن الإقدام على السير إلى أرض العدو نوع فريد من الشجاعة مبني على قدر عظيم من الإيمان بالله تعالى .

ولقد تحقق لهذا القائد البطل ما أراد من هذه المغامرة الجريئة حيث وُفِّق إلى قتل الثلاثة الذين خرجوا طليعةً للعدو ثم كان قتلهم سببًا في تشاؤم الأعداء ورحيلهم عن أرض المعركة .

وهكذا جنَّب الأحنف جيشه معركة شرسة يخوضونها مع عدو يتصف بالغلظة والشجاعة ، وتحقق فيه قول عمر رضي الله عنه الذي تقدم في أول هذا الخبر حيث اعتبره سيد أهل المشرق ، وإن من أبرز

علامات السيادة أن يجعل القائد من نفسه حاميا لجنده يقيهم بنفسه المهالك ويوفر عليهم المتاعب .

ولاننسى أن من أسباب خذلان الكفار ما وقر في قلوبهم من عقيدة التطيُّر ، فقد تشاءموا مما حدث لفرسانهم الثلاثة ، فكان ذلك من أهم العوامل التي هزمتهم وقرروا بها الانسحاب من أرض المعركة، وقد كانت هذه العقيدة الجاهلية عاملا مُضعفًا للأعداء ومقويًّا للمسلمين في كثير من حروبهم كما مر علينا في القادسية .

وإن من مزايا عقيدة الإسلام الناصعة أن الله تعالى طهر قلوب المسلمين من عقيدة التشاؤم فأصبحوا يمضون في جهادهم مُقْدمين لايلوون على شيء من الأمور التي تعوق الأعداء وتوهن قوتهم .

خبر سارية بن زنيم وموقف لعمر :

هذا وقد حدث في أحيان نادرة أن فات التوفيق إلى الرأي السديد بعض القادة فيقيِّض الله تعالى للمسلمين مايخرجهم من المآزق التي وقعوا فيها .

ومن الأمثلة على ذلك ما أخرجه الإمام الطبري من طريق سيف ابن عمر عن شيوخه قالوا : وقصد سارية بن زنيم « فَسَا » و «دارابْجِرْد» - يعني حينما أمر أمير البصرة قادته بالتفرق في بلاد الفرس - حتى انتهى إلى عسكرهم ، فنزل عليهم وحاصرهم ماشاء الله ، ثم إنهم استمدوا فتجمَّعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس ، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير ، فرأى عمر رضي الله عنه في تلك الليلة فيما يرى النائم معركتهم وعددهم في ساعة من النهار ، فنادى

من الغد : الصلاة جامعة ، حتى إذا كانت الساعة التي رأى فيها ما رأى خرج إليهم ، وكان أُريَهم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم ، وإن أرَزوا إلى جبل من خلفهم لم يُؤتَوا إلا من وجه واحد ، ثم قام فقال : يا أيها الناس إني رأيت هذين الجمعين - وأخبر بحالهما - ثم قال : ياسارية الجبل، الجبل، ثم أقبل عليهم ، وقال : إن لله جنوداً ولعل بعضها أن يبلِّغهم ، ولما كان تلك الساعة من ذلك اليوم أجمع سارية والمسلمون على الإسناد إلى الجبل ففعلوا وقاتلوا القوم من وجه واحد فهزمهم الله لهم ، وكتبوا بذلك إلى عمر واستيلائهم على البلد ودعاء أهله وتسكينهم [1] .

وجاء في رواية أخرى ذكرها الإمام الطبري أن المسلمين في المدينة سألوا رسول ذلك الجيش عن الفتح وهل سمعوا شيئًا يوم الوقعة ؟ فقال: نعم سمعنا : ياسارية الجبل ، وقد كدنا نهلك فلجأنا إليه ففتح الله علينا[2] .

وذكر الحافظ ابن كثير رواية مختصرة لهذه الوقعة وقال : هذا إسناد جيد حسن [3] ، وذكرها العلامة على المتقي الهندي من رواية ابن الأعرابي والدِّيْرَعاقولي وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي نعيم والبيهقي واللالكائي وابن عساكر، ثم ذكر أن الحافظ ابن حجر حسَّن إسنادها [4] .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٨ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ١٧٩ .

(٣) البداية والنهاية ٧/ ١٣١ .

(٤) منتخب كنز العمال ٤/ ٣٨٦ .

هذا وقد تبين لنا من هذه الروايات أن سارية بن زنيم لم يوفق في اختيار المكان المناسب لتلك المعركة فكشفهم الله تعالى لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في المنام وأدرك خطورة مكانهم والمكان المناسب لحمايتهم، فجمع المسلمين من الغد وذكر لهم ما رأى ، ثم نادى سارية أمامهم وأمره بلزوم الجبل ، وإنما جمع الناس وأعلن اجتماعهم ليحضره من يحضر مجالس الذكر من الملائكة عليهم السلام ومسلمي الجن، فأراد بذلك الخطاب أن يسمعه جنود الله تعالى فلعل بعضهم يُبَلِّغ رسالته كما صرح بذلك .

ونخلص من هذا إلى أن لله تعالى جنودًا لانراهم ينصر بهم المسلمين ويبلغون رسائلهم ، فقد نصر الله تعالى المؤمنين بالملائكة ، عليهم السلام في أكثر من موطن ، وبلغ رسائلهم بواسطة إخوانهم مسلمي الجن كما مر علينا ذلك .

ولما كان عهد المسلمين الأوائل ليس عهد الاتصالات السريعة سخر الله تعالى من عباده من نقل رسالة عمر إلى سارية فنفعه الله بها، وسمعوا يوم المعركة صوتًا ينادي : ياسارية الجبل فلجئوا إليه ونصرهم الله تعالى .

وإذا كان ذلك من امتنان الله تعالى على المسلمين عامة فهو كرامة منه جل وعلا لأمير المؤمنين عمر الذي وهب نفسه لله سبحانه ولعباده المؤمنين .

* * *

١٤ - فتح سجستان -

ذكر الإمام محمد بن جرير الطبري من طريق سيف بن عمر عن شيوخه أنه قالوا : وقصد عاصم بن عمرو لسجستان ولحقه عبد الله ابن عمير فاستقبلوهم فالتقوا هم وأهل سجستان في أدنى أرضهم، فهزموهم ثم اتبعوهم حتى حصروهم بزَرَنْج ، ومخروا أرض سجستان ماشاؤوا، ثم إنهم طلبوا الصلح على زرنج وما احتازوا من الأرضين، فأعطُوه ، وكانوا قد اشترطوا في صلحهم أن فَدَافدَها حمَى ، فكان المسلمون إذا خرجوا تناذروا خشية أن يصيبوا منها شيئًا (١) .

فهذا مثل من أمثلة حفظ المسلمين للعهود ، حيث يُنذر بعضهم بعضا إذا خرجوا حتى لاتَرعَى دوابهم من ذلك الحمَى فَيُخِلُّوا بالعهد، ولقد كانت لهم الهيمنة وبيدهم القوة لو أرادوا أن يُخفروا ، ولكنهم يخشون الله تعالى حيث يعلمون أن نقض العهد أو الإخلال بشروطه أمر محرم.

وهكذا حمى المسلمينَ دينُهم من المخالفات التي يترتب عليها سوء المصير في الآخرة ، والعاقبة السيئة في الدنيا ، حيث قد يسلَّط أعداؤهم عليهم فتكون الدولة لهم .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٠ .

١٥ – معركة بيروز من الأهواز –

كان أمير المؤمنين عمر قد عهد إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما حينما فرَّق الجند على الأمصار البعيدة أن يسير إلى نهاية حدود قطاع البصرة كي لايُؤتى المسلمون من خلفهم ، ولإنقاذ من يحاط به من الجيوش أو من ينقطع عن جيشه .

ولقد وقع ماحذِر منه عمر حيث اجتمع في « بيروز » جمع عظيم من الأكراد وغيرهم ليكيدوا المسلمين ويصيبوا منهم عورة ،وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا ، فخرج إليهم حتى نزل عليهم في رمضان ، فالتقوا بين نهر تيري ومناذر .

وهذا الحذر من عمر إلهام من الله تعالى له ، وهو مع أمثلة سبق بعضها مصداق قول النبي ﷺ « لقد كان فيمن قبلكم ناس محدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر » أخرجه الشيخان[1] .

فقد أدرك عمر مما يتوقع من الفرس وهو بعيد عنهم مالم يدركه القريبون من قادة العراق ، وكم لهذا الإمام الملهم من مواقف عظيمة كانت إنقاذًا من الله تعالى للمؤمنين آنذاك من مهالك ، ومآزق خطيرة..

ولما التقى الصفان قام المهاجر بن زياد وقد تحنَّط واستقتل فقال لأبي موسى : أَقْسِمْ على كل صائم لَمَا رجع وأفطر ، فرجع أخوه

---

(١) صحيح البخاري ، فضائل الصحابة ، باب ٦ ، صحيح مسلم، فضائل الصحابة/ ٢٣ .

لإبرار القسم، وإنما أراد بذلك توجيه أخيه عنه لئلا يمنعه من الاستقتال، وتقدم فقاتل حتى قُتل ، ووهَّن الله المشركين حتى تحصنوا في قلة وذلة[1] .

هذا وإن ما قام به المهاجر بن زياد من الاستعداد للشهادة مثل من أمثلة رائعة لجماعة من أقوياء الإيمان جعلوا من أنفسهم مشعلاً لحماس المسلمين ودَفْعهم لبذل طاقتهم الكاملة في المعارك ، ولقد كانوا مقدمة للنصر الذي أحرزه المسلمون آنذاك .

وهو مثل يدلنا على ما يفعله القلب المشحون بالإيمان من دفع النفس إلى ركوب المخاطر وخوض الأهوال من أجل تحقيق العلو والسيادة لكلمة الله تعالى في الأرض .. هذا المبدأ السامي الذي كان ماثلا على الدوام في أعين أولئك المجاهدين ، والذي استهانوا من أجله بالدنيا ومافيها من متاع زائل .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٣ من طريق سيف بن عمر عن شيوخه .

١٦ - شكوى ضد أبي موسى الأشعري -

وهي الشكوى التي تقدم بها ضبّة بن محصن العنزي ضد أبي موسى الأشعري رضي الله عنه حين كان واليًا على البصرة ، وقد ذكرها الإمام الطبري مطولة وخلاصتها أن هذا العَنَزي طلب من أبي موسى أن يرسله في الوفد إلى أمير المؤمنين فأبى وقال : قد كتبنا من هو أحق منك ، وكتب أبو موسى بخَبَره إلى عمر ، فقدم على أمير المؤمنين عمر فاشتكى أبا موسى الأشعري في أنه أخذ ستين من أبناء أمراء فارس الذين تم سبيهم، وأن له جارية تُدعى عقيلة تُغدَّى جفنة وتُعشَّى جفنة ، وأن له قفيزين ، وأنه فوَّض أمر الإمارة إلى زياد بن أبيه ، وأنه أجاز الحطيئة بألف.

وجاء في الرواية أن عمر بعث إلى أبي موسى فقدم عليه وجمع بينه وبين ضبّة العنزي ، وساءل أبا موسى عن تلك الموضوعات فقال أبو موسى عن أبناء أمراء فارس : دُللت عليهم ، وكان لهم فداء ففديتهم وأخذته فقسمته بين المسلمين ، فقال ضبة : والله ماكذَب ولاكذبْت، وقال عن القفيزين : قفيز لأهلي أقوتهم وقفيز للمسلمين في أيديهم يأخذون به أرزاقهم ، فقال ضبة : والله ماكذب ولاكذبت، فلما ذكر عقيلة سكت أبو موسى فلم يعتذر ، وعلم أن ضبة قد صدقه .

وقال عن زياد : وجدت له نُبْلاً ورأيا فأسندت إليه عملي، وقال عن الحطيئة : سددت فمه بمالي أن يشتمني .

فقال عمر : قد فعلتَ مافعلت فارجع إلى عملك ، وقال له: إذا قدمْتَ فأرسل إليَّ زيادًا وعقيلة .

وجاء في الرواية أنه اختبر زيادًا فوجده فقيهًا فرده وأمر أمراء البصرة أن يشربوا برأيه ، وحبس عقيلة بالمدينة ، وقال : ألا إن ضبَّة العنزي غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه ، وفارقه مراغما أن فاته أمر من أمور الدنيا ، فصدَق عليه وكذب فأفسد كذبه صدقه فإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى النار[1] .

هذا وإن ما قام به هذا الرجل يعتبر مثلا للتعجل والتهور في شكوى المسئولين في أمور عرف المدَّعون ظاهرها وخفي عليهم باطنها، فأوَّلوها على حسب أهوائهم ، وقد كان الطريق القويم أن يُبدي هذا الرجل اعتراضه على أميره ليعرف منه جليَّة الأمر ، ولكن الهوى أحيانًا يقود صاحبه إلى سوء التفكير ، والخطأ في التدبير .

وقد استمع أمير المؤمنين لشكواه مع علمه بخبره ،وهو تجاوب من عمر رضي الله عنه حمله على استقدام الوالي واستجوابه في المسائل التي رُفعت ضده ، وهذا هو المنهج السليم في الحفاظ على حقوق الرعية، وإخماد الفتن في المراحل الأولى من اشتعالها .

هذا وإن في سكوت أبي موسى رضي الله عنه في موضوع الجارية مَثَلٌ من التزام المؤمنين الصادقين بالصدق ، وعدم تزوير الحقائق ، بينما نجد من هم أقل درجة في الإيمان يلتمسون لأنفسهم المعاذير للخروج من الموقف ولو بتغيير الحقائق .

والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن المؤمنين الصادقين يراقبون الله عز وجل في سلوكهم ، بينما أولئك يراقبون من يخاطبهم من المسئولين،

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٨٤ من خبر سيف بن عمر عن شيوخه .

والله تعالى لاتخفى عليه مكنونات الضمائر، بينما يستطيع الذكي اللَّبِق أن يزوِّر الحقائق ، ويتكلم بلسانه عن غيرما يعتقد بقلبه ، وأقوياء الإيمان يلاحظون التخلص من وقوفهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ، والذين هم دون ذلك يراقبون التخلص من المآزق التي وقعوا فيها في الدنيا .

فالمسئولون دائمًا في راحة من أقوياء الإيمان لأن صفحتهم بيضاء، وألسنتهم مرآة لقلوبهم ، بينما هم في عَنَت وهمٍّ من ضعفاء الإيمان حيث لايثقون بالمعلومات التي يحصلون عليها منهم ، ويضطرون لبذل جهد كبير في التحري عن قضيتهم .

وأخيرًا يُوَجِّه عمر رضي الله عنه المسلمين إلى المسلك الأمثل في انتقاد الناس ورفع القضايا ضد المسئولين ، وذلك بالتجرد من الهوى الذي يحمل صاحبه على الكذب، إما باختلاق قضايا لا أصل لها، أو بتضخيم القضايا ، أو بتفسير الأحداث على غير وجهها ، فإذا حدث هذا فإن صاحب القضية لايُسمع له وإن صدق في بعض أقواله لأن كذبه يفسد عليه صدقه .

❊ ❊ ❊

مواقف وعبر

فى

فتـــوح مصـــر

لما تَمَّ فتح الشـام أشار عمرو بن الـعاص على أمير المؤمنين عـمر رضي الله عنهما بفـتح مصر ، وذلك حينما قدم عمـر إلى الشام كما ذكر أبو القـاسم عبد الرحمن بن عـبد الحكم قال : لما قدم عـمر بن الخطاب رضي الله عنه الجابية قام إليه عمرو بن العاص رضي الله عنه فخلا به وقال : يا أمير المؤمين ائذن لي أن أسير إلى مصر ، وحرَّضَه عليها وقال : إنك إن فتحتـها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم ، وهي أكثر الأرض أموالا و أعـجزها عن القتال والحرب، فتـخوف عمر بن الخطاب على المسلمين وكـره ذلك فلم يزل عـمرو يعظم أمـرها عنده ويخبره بحالها ويـهوِّن عليه فتحها حتى ركن إليه عـمر وعقد له على آربعة آلاف رجل [1] .

وإنما لم يقبل عمر في أول الأمر إشفاقًا منه على المسلمين، وكان دائمًـا حريصًـا على أن لاتُسفك دمـاء المسلمين إلا في سـبيل إعـزاز الإسلام، وبناءً على خـطط مدروسة مـحكمة تكون نتـائجها التـقدم بدولة الإسـلام خطوات بعيـدة مع بذل أقل التضـحيـات فكان لذلك يخـتار القـادة الحكماء وينهى قـادته عن أن يَقـدِّموا على جـيوشـهم الشجعان المستميتين الذين يندفعون بدافع الفداء والشجاعة المطلقة التي لاتتقـيد بالرأي السديـد والتفكير المحكم حـتى لايورِّطوا المسلمين في هلكة، وذلك أن الشـجاع الفـدائي قد ينجـو من المغامـرة لأن الناس

(١) النجوم الزاهرة ١/ ٥، فتوح مصر ٤٧ .

لايقفـون أمام المستميت ولكن قد لايكون مَنْ وراءه بمثل مسـتواه من الاندفاع والقوة فيأكلهم الأعداء بسبب تهوُّر من تقدمهم .

وإن المحافظة على سلامة الجنود مع الحصول على أكبر المكاسب الحربية هو الهدف الذي يسعى له القادة المسلمون ، بدافع من خوفهم من الله عز وجل ورجائه قبل كل شيء ، ولأنهم مسئولون ثانيًا أمام أمتهم التي ترقب هذه النتائج وتعيش على الأمل السعيد في حصول الانتصارات الكبيرة مع بذل أقل التضحيات، وإذا كان الدافع الأخير يشترك فيه مع المسلمين بعض الأمم التي يترتب بقاء القادة فيها على السمعة الحسنة لدى أفرادها ، فإن الدافع الأول وهو الخوف من الله عز وجل ورجاؤه ينفرد فيه المسلمون ، وهو الدافع الأهم الذي ظل ملازمًا للمسلمين في فتوحهم الأولى .

وإذا كان الكفار يدفعون بجنودهم للتوسع في الأرض رغبة في تأمين الضروريات للمعيشة والكماليات للرفاهية وإشباعًا لحب السيطرة والعلو ، فإن المسلمين يدفعون بجنودهم رغبة في إنقاذ الشعوب المغلوبة على أمرها كي تصل إليها دعوة الإسلام ، ولتكون كلمة الله هي العليا في الأرض .

وإذا كان جنود الكفار يندفعون للقتال رغبة في تأمين الحياة الدنيوية لهم على الوضع الذي يحبونه فإن جنود الإسلام يندفعون إلى الجهاد رغبة فيما عند الله تعالى من الأجر الأخروي .

ولذلك فإن ولاة المسلمين إذا بذلوا جهدهم في وضع الخطط المحكمة وتأمين ما يستطيعون من سبل السلامة فإنهم لايكونون ملومين من الجنود وغيرهم في حصول مايُكره من المصائب لأن الجنود إنما

اندفعوا رغبة فيما عند الله تعالى ، وهم يعلمون أن أقرب الطرق إلى ذلك أن يموتوا شهداء .

وبهذا التفكير من الموازنة بين حب الجهاد في سبيل الله تعالى والحفاظ على أرواح المسلمين كان أمير المؤمنين عمر يفكر حينما عرض عليه عمرو بن العاص السير لفتح مصر .

* * *

١ – مسير عمرو إلى مصر –

جاء في رواية ابن عبد الحكم السابقة : وقال له عمر : سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي سريعًا إن شاء الله ، فإن أدركك كتابي آمرك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئًا من أرضها فانصرف ، وإن أنت دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره .

فسار عمرو بن العاص من جوف الليل ولم يشعر به أحد من الناس، واستخار عمر الله فكأنه تخوف على المسلمين في وجههم ذلك، فكتب إلى عمرو بن العاص أن ينصرف بمن معه من المسلمين ، فأدرك الكتاب عمرًا وهو برفح ، فتخوف عمرو بن العاص إن هو أخذ الكتاب وفتحه أن يجد فيه الانصراف كما عهد إليه عمر ، فلم يأخذ الكتاب من الرسول ودافعه كما هو حتى نزل قرية فيما بين رفح والعريش ، فسأل عنها فقيل : إنها من مصر ، فدعا بالكتاب فقرأه على المسلمين ، فقال عمرو لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر ؟ قالوا : بلى ، قال : فإن أمير المؤمنين عهد إليَّ وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع ، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا أرض مصر ، فسيروا وامضوا على بركة الله تعالى[1] .

هذا وقد ذكر ابن تَغْرِي بَرْدِي تفاصيل سير عمرو بن العاص بجيشه، فذكر أنه سار إلى مصر حتى وصل إلى « الفَرَما» وهي قرية قديمة بين العريش والفسطاط، فلقيَ بها جموعًا من الروم وقاتلهم

---

(١) فتوح مصر / ٤٧ .

قتالاً شديـدًا نحوًا من شهر حتى فتح الله عليـه ، وقد جاء في رواية ابن عبـد الحكم هذه أن القبط قال بعـضهم لبعض : ألا تعجـبون من هؤلاء القوم يقـدمون على جمـوع الروم وإنما هم في قلة من الناس ! فـأجابه رجل منهم فـقال: إن هؤلاء القـوم لايتوجـهون إلى أحـد إلا ظهروا عليه حتى يَقْتُلوا خَيْرهم .

يعني أنهم يكونون سببًـا في قتل خيرهم وهو أميـر المؤمنين عمر رضي الله عنه كما جاء في رواية أخـرى عند ابن عبد الحكم أن عَمْرًا طلب ذلك الرجل ، فـأخـبره أصـحـابه أنه لايدري مـايقول، حـتى خلَّصوه، قال : فلما بلغ عمـرًا قتل عمر بن الخطاب أرسل في طلب ذلك القبطي فوجده قد هلك فعجب عمرو من قوله (١) .

وهذه شـهادة للمـسلمين من أحـد أعدائهم بالشـجاعـة والإرادة الصارمة، والتوفيق إلى النتائج الحاسمه ، والحق ماشهدت به الأعداء، وإنما بلغ المسلمـون مابلغوا من ذلك لصلتـهم القوية الدائمـة بالله عز وجل ، فهم يشـعرون دائمًا بأنهم مـوصولون بالسـماء وأن جنود الله تعالى من الملائكة وغيرهم تشـاركهم وتؤيدهم ، وإن شعور إيّ إنسان يقع هو وقومه في محنة بأن دولة قوية تقف معـهم يعطيهم قدرًا كبيرًا من الثقة والأمان والأحلام المستقـبلية فكيف إذا كان الإنسان يشعر بأن الله جل وعلا معه بنصره وتأييده ؟ !

وأخرج ابن عـبد الحكم من رواية أبي حـبيب قـال : وكان رجل ممن كان خـرج مع عمرو بن العـاص حين خرج من الشام إلى مـصر

(١) فتوح مصر / ٥٠ ، النجوم الزاهرة ١/ ٧ .

أُصيب جمله ، فأتى عمراً يستَحْمله فقال عمرو : تحمَّل مع أصحابك حتى نبلغ العامر ، فلما بلغوا العريش جاء فأمر له بجملين ثم قال له : لن تزالوا بخيـر مارَحـمَـتْكم أئمتـكم ، فإذا لم يرحـمـوكم هلكوا وهلكتم[1] .

وهكذا كان عمرو بن العاص رحيمًا بالمسلمين محافظًا عليهم كما أراد أمير المؤمنين عمر ، وإن هذه المعاملة الكريمة لتحبب قلوب الجنود إلى قائدهم ، وترفع مع معنويتهم ، فلايكون هناك لديهم عوائق دون بذل كل ما يستطيعون من طاقة في الجهاد .

* * *

(١) فتوح مصر / ٤٨ .

٢ – معركة أمّ دنين –

ذكر ابن عبد الحكم في روايته أن عمرًا مضى بجيشه حتى فتح «بلبيس» بعد قتال دام نحواً من شهر ، ثم مضى حتى أتى« أم دنين» وتسمَّى المقس وهي واقعة على النيل فقاتل المسلمون حولها قتالاً شديدًا وأرسل عمرو إلى أمير المؤمنين يستمده فأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف فلما طال الحصار طلب عمرو المدد مرة أخرى فأمده أمير المؤمنين بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل يقوم مقام الألف، وهم الزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخَلَّد ، وقيل الرابع خارجة بن حذافة، وقال عمر في كتابه له : اعلم أن معك اثني عشر ألفًا ، ولن تُغلَب اثنا عشر ألفا من قلَّة .

وقد خرج الروم مع الأقباط لمواجهة المسلمين ، وجرت بينهم معركة حامية استعمل فيها عمرو بن العاص دهاءه الحربي كما صنع خالد بن الوليد في حروب العراق، وذلك أنه جعل جيشه ثلاثة أقسام، حيث أقام كمينًا للأعداء في الجبل الأحمر ، وأقام كمينًا آخر على النيل قريبًا من أم دنين ، وقابل أعداءه ببقية الجيش ، ولما نشب القتال بين الفريقين خرج الكمين الذي في الجبل الأحمر وانقض على الروم فاختل نظامهم وانهزموا إلى أم دنين فقابلهم الكمين الذي بقربها فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثلاثة وانهزموا وتفرق جيشهم ولجأ بعضهم إلى حصن باب اليون الحصين (١) .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/٨، فتوح مصر ٤٩ .

وهكذا كسب المسلمون هذه المعركة ووقاهم الله شر أعدائهم بفضله تعالى وذلك بتوفيق قائدهم المحنَّك إلى هذه الخطة المحكمة التي بدَّد بها طاقة الأعداء وألجأهم إلى الهزيمة والفرار .

*　　　*　　　*

٣ – معركة باب الْيُون وحصار حصنها –

سار عمرو بجيشه حتى وصل حصن باب اليون ، وقد أخرج الإمام الطبري خبر ذلك من طريق سيف بن عمر عن شيوخه: أن عمرو بن العاص خرج إلى مصر بعدما رجع عمر [يعني من الشام] إلى المدينة حتى انتهى إلى باب اليون ، واتبعه الزبير فاجتمعا، فلقيهم هناك أبو مريم جاثليق مصر [(١)] ومعه الأسقف في أهل السنيات، بعثه المقوقس لمنع بلادهم ، فلما نزل بهم عمرو قاتلوه ، فأرسل إليهم يقول: لاتُعجلونا لنعذر إلكيم وترون رأيكم بعد ، فكَفُّوا أصحابهم، وأرسل إليهم عمرو : إني بارز فليبرز إلي أبو مريم وأبو مريام – وهما زعيما الأقباط – فأجابوه إلى ذلك ، وآمَنَ بعضهم بعضا ، فقال لهما عمرو : أنتما راهبا هذه البلدة فاسمعا ، إن الله عز وجل بعث محمداً ﷺ بالحق وأمره به ، وأمرنا به محمد ﷺ ، وأدَّى إلينا كل الذي أُمر به، ثم مضى صلوات الله عليه ورحمته، وقد قضى الذي عليه وتركَنا على الواضحة، وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس ، فنحن ندعوكم إلى الإسلام ، فمن أجابنا إليه فَمِثْلُنا، ومن لم يجبنا عرضنا عليه الجزية وبذلنا له المَنَعة ، وقد أعلَمَنا أننا مفتتحوكم، وأوصانا بكم حفظًا لرحمنا فيكم ، وإن لكم إن اجبتمونا بذلك ذمة إلى ذمة ، ومما عهد إلينا أميرنا : استوصوا بالقبطيين خيرًا، فإن رسول الله ﷺ أوصانا بالقبطيين خيرا ، لأنهم لهم رحمًا وذمة، فقالوا :قرابة بعيدة لايصل مثلها إلا الأنبياء-يعني لايعلم خبرها إلا الأنبياء – معروفة شريفة كانت ابنة ملكنا ، وكانت من أهل «مَنْف»

---

(١) يعني رئيس النصارى .

والمُلْك فيهم ، فأُديل عليهم أهل عين شمس ، فقتلوهم ، وسُلِبوا ملكهم واغتربوا ،فلذلك صارت إلى إبراهيم عليه السلام،مرحبًا به وأهلا (١) .

يقصدون بذلك هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، فإما أَنَّ عَمْرًا ذكرها لهم ولم تُذكر في الرواية ، وإما أن خبرها كان معلومًا لديهم جميعًا فلم يكن هناك حاجة لذكرها .

وهكذا رأينا في هذا الخبر كيف كان الصحابة رضي الله عنهم يغتنمون نقاط اللقاء مع الأعداء ، محاولةً منهم في اجتذابهم إلى الإسلام ، أو على الأقل ليخففوا من اندفاعهم نحو مواجهتهم بالحرب، فالروم في مصر كانوا متصلبين في عداء المسلمين وهم أصحاب السلطة العليا في مصر ، أما الأقباط الذين هم أهل مصر فقد كانوا يشعرون بظلم الروم ولم يكونوا قادرين على التحرر منهم فإذا انتقلوا من سيطرتهم إلى سيطرة المسلمين ، فإن ذلك من صالحهم وقد شاهدوا عدل المسلمين في البلاد التي فتحوها قبل ذلك، فظهر منهم الميل إليهم وتفضيلهم على الروم، فكانت هذه المبادرة من عمرو بن العاص لاستمالة الأقباط ، حيث ذكر لهم أوَّلاً أن الرسول ﷺ قد أخبرهم بفتح مصر للمسلمين ، وهم أهل كتاب، وقد عرفوا قبل ذلك نبوة رسول الله ﷺ ، وهذا الخبر يرسِّخ في نفوسهم أن المعركة لصالح المسلمين قبل أن يخوضوها، ولاشك أن ذلك يوهن في عزائمهم .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠٧ .

كما ذكر لهم وصية رسول الله ﷺ بهم ، وذكَّرهم بوشائج القربى القديمة التي تربطهم بهم ، وذلك يبعث على التفاهم بينهم .

وهكذا يسلك القادة العظماء حيث لاينخدعون بقوتهم ونجاحهم في الحروب ، بل يحاولون النفوذ إلى قلوب أعدائهم للحدِّ من الاندفاع نحو مواجهتهم ، ولدعوتهم إلى مافيه خيرهم وسعادتهم، فإما دخلوا في الإسلام ، وإما صالحوهم ، وإما واجهوهم بعد ذلك بضعف لتضاؤل دوافع المواجهة في نفوسهم .

ثم جاء في سياق رواية الطبري المذكورة أن زعيمي النصارى أبا مريم وأبا مريام قالا لعمرو بن العاص : آمنَّا حتى نرجع إليك، فقال عمرو : إن مثْلي لايُخدع ، ولكني أؤجلكما ثلاثا لتنظرا وتناظرا قومكما ، وإلا ناجزناكم ، قالا : زدنا ، فزادهم يومًا ، قالا : زدنا فزادهم يومًا ، فرجعا إلى المقوقس فهمَّ - يعني بالصلح - فأبى أرطبون أن يجيبهما وأمر بمناهدتهم .

وهكذا أفلح عمرو في إقناع الأقباط بالصلح ، ولكن قائد الروم رفض ذلك ، وأمر بالحرب .

وقد التزم المسلمون بالهدنة في الأيام الخمسة ولكن الروم غدروا فبيَّتوا المسلمين ليلا بهجوم مفاجيء ، وكان المسلمون على استعداد لهم، كما هي حالهم مع أعدائهم في ذلك العهد ، فالتقوا معهم وقُتل « فرقب» قائد الأعداء ومن معه وانهزم بقيتهم (١) .

وهكذا أعطى قادة المسلمين في هذه المعركة- كما أعطوا من قبل-

(١) تاريخ الطبري ٤/١٠٧- ١٠٨ .

أمثلة حية لليقظة والترقب والرصد الحربي ، حيث لم يكونوا يُؤْخذون على غِرَّة ، ويعلمون بتحركات أعدائهم بدقة متناهية .

هذا وقد اعتصم الروم والأقباط في حصن باب اليون المنيع، وجرت مفاوضات أخرى حيث أرسل المقوقس إلى عمرو يقول : إنكم قد ولجتم في بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم في أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى في أيدينا ، فابعثوا إلينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ، فلعله أن يأتي الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب، وينقطع عنا وعنكم القتال قبل أن يغشاكم جموع الروم ، فلا ينفعنا الكلام ولانقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفًا لمطلبكم ورجائكم ، فابعثوا إلينا رجالا من أصحابكم نعاملهم على مانرضى نحن وهم به من شيء .

رسل المقوقس يتأثرون بصلاة المسلمين وأخلاقهم :

فلما أتَتْ عمرًا رسل المقوقس حبسهم عنده يومين وليلتين حتى خاف عليهم المقوقس فقال لأصحابه : أتُرون أنهم يقتلون الرسل ويحبسونهم ويستحلون ذلك في دينهم ؟!

وإنما أراد عمرو بذلك أنهم يرون حال المسلمين ، فرد عليهم عمرو مع رسلهم : إنه ليس بيني وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم في الإسلام فكنتم إخواننا وكان لكم مالنا ، وإما أن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدنا بالصبر

والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين .

فلما جاءت رسل المقوقس إليه قال : كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قومًا الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة ، وإنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، مايُعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم .

فقال عند ذلك المقوقس : والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوى على قتال هؤلاء أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل لم يجيبونا بعد اليوم إذا أمكنتهم الأرض ، وقَوُوا على الخروج من موضعهم [1] .

وهكذا انكشف لنا جانب من جوانب عبقرية هذا القائد الملهم عمرو بن العاص ، حيث أبقى أولئك الرسل يومين ليروا عظمة المسلمين فيحملوا هذه الرسالة الوصفية لزعيمهم ، وإنما دفعه لهذا التصرف مايدركه من ذلك الرصيد الضخم الذي يملكه المسلمون آنذاك من الرقي الأخلاقي الذي أذهل أفراد الأمم وقادتها .

إن واقع المسلمين في ذلك العصر يعتبر دعاية قوية للإسلام وليس في حياتهم ما يُستَحْيَ منه ويحرص القادة على إخفائه عن أنظار الأعداء ، بل هو صفحة بيضاء من مكارم الأخلاق ، وسجل حافل من مظاهر المروءة .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٠ .

ولذلك عاد أولئك الرسل وقد مُلئوا إعجابًا بجيش المسلمين أفرادًا وقادة ، وسجَّلوا هذا الإعجاب بما وصفوا به ذلك الجيش من الشجاعة النادرة ، التي أوصلتهم إلى حب الموت أكثر من حب الحياة ، والتواضع الجم ، والزهد الرفيع في الدنيا والمساواة بينهم ، حيث لم يجدوا في حياتهم فرقا في المظاهر بين أمير ومأمور ، وشريف ووضيع، وسيد وعبد .

كما أبدوا إعجابهم بانتظام المسلمين جميعًا في الصلاة حيث لايتخلف منهم أحد،وهو مظهر مهم من مظاهر الانضباط عند المسلمين،كما أبدوا إعجابهم بما يقومون به بين يدي الصلاة من الوضوء،ثم في مظهر السكينة والخشوع الذي يعلو وجوه المؤمنين ويحكم جوارحهم وهم يؤدون الصلاة .

ولاشك أن صورة المؤمنين وهم يستعدون للصلاة بالوضوء الذي هو مظهر من مظاهر الطهارة والنظافة التي يتفق العقلاء على أهميتها في حياة الإنسان ، ثم انضباطهم جميعًا وراء إمام واحد، وخشوعهم جميعًا بحيث لا يلتفتون ولايرفعون أبصارهم. . لاشك أن هذه الصورة تأسر أنظار الناس الذين يشاهدونها لأول مرة ، وتخلب ألبابهم،ويدركون من خلال هذه الصورة الأخَّاذة أن هؤلاء المصلين وهم في هذا السكون الرهيب والخشوع المهيب ، قد خرجوا عن التفكير في هذه الحياة التي يشترك في جواذبها عموم البشر إلى التفكير فيما وراء الحياة ، فيدفع هؤلاء المتأملين ذلك إلى التساؤل عن الأمر المهم الذي شغل هؤلاء العظماء عن التفكير في أمور الدنيا ، وعندها

يدركــون أن هذا الأمر المهم هو الخــضوع لـعظمة الله عــز وجل ولذة مناجاته والشوقُ إلى لقائه والظفر بنعيمه في دار الخلود .

ومن هنا نعلم أن هذه الصلاة الجــماعية بذلك المظهــر الأخاذ من الخشوع والسكينة تعتبر أعلى مظهر من مظاهر الدعوة إلى الإسلام .

ولقد أثرت هذه المظاهر الأخلاقية على المقــوقس فقال ما قال من الثناء على المسلمين ، والاعتــراف بأنهم لو استقبلوا الجــبال لأزالوها، وإنما قال ذلك بناء على تجاربه الحربيــة ، وإدراكه بأن التفوق الأخلاقي يترتب عليه التفوق الحربي .

حوار المقوقس مع وفد المسلمين :

هذا وقــد جـــاء في الرواية المذكــورة أن المقـــوقس رد رسله إلى المسلمين يقول لهم : ابعــثوا إلينا رسلاً منكم نعــاملهم ونتداعى نحن وهم إلى ماعساه يكون فيه صلاح لنا ولكم .

فبعث عمرو بن العاص عشرة نفر أحدهم عبادة بن الصامت وكان طوله عشرة أشبــار، وأمره عمرو أن يكون متكلم القــوم وأن لايجيبهم إلى شيء دعــوه إليه إلاإحــدى هذه الثــلاث الخصــال قال: فــإن أميــر المؤمنين قدتقدم إليَّ في ذلك، وأمرني أن لاأقبل شيئًا إلاخصلة من هذه الثلاث الخصال وقد تقدم أنها الإسلام أو دفع الجزية وإلا فالقتال.

قال : وكان عبادة أسود ، فلما ركبوا السفن إلى المقوقس ودخلوا عليه تقــدم عبادة ، فهــابه المقوقس لسواده ، وقــال : نَحُّوا عني هذا الأسود وقدِّموا غيره يكلمني ، فقالوا جميعًا : إن هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلمًا وهو سيدنا وخيرنا ، والمقدَّم علينا ، وإنما نرجع جميعًا إلى

قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره ، وأمرنا أن لانخالف رأيه وقوله .

فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغي أن يكون هو دونكم ؟ قالوا : كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعًا ، وأفضلنا سابقة وعقلا ورأيا ، وليس يُنكَر السواد فينا .

فقال المقوقس لعبادة : تقدَّم يا أسود وكلمني برفق فإنني أهاب سوادك ،وإن اشتد كلامك عليَّ ازددت لك هيبة .

وعند هذا المقطع من الخبر نقف لنطلَّ على مشهد مثير يختصم فيه ملأ أهل الحق وملأ أهل الباطل حول تحديد القيم العليا التي يجب أن تسود مفاهيم البشر .

فبينما نجد ملأ أهل الباطل يضعون معايير للقيم مبنية على الأشكال والصور الظاهرة ، دون عمق وتوغل في الباطن ، فينظرون إلى لون البشرة ، ويعلِّقون عليه الحب والكره والتفاؤل والتشاؤم، نجد ملأ أهل الحق يغوصون إلى الحقائق ، ويستخرجون العناصر الزكية من مكامنها فيقدِّمون أصحاب الكفاءات الذين يملؤون مراكزهم، ويعبرون عن أمتهم ومبادئهم السامية ، بما يذهل العدو ويعجب الصديق ويشفي صدور المؤمنين ، وإن كان هؤلاء الأكفاء من أصحاب اللون الأسود الذي يزدريه الجاهليون على مختلف طبقاتهم .

وإنه إن صدر هذا الأزدراء من عامة الناس الجاهليين فإنه لمن العجيب أن يصدر من رجل مسئول عن أمة ، بل من رجل قد اشتهر

بالحكمة والتعقل منذ أن أرسَل رسول الله ﷺ كُتبَه إلى زعماء الأمم فكان المقوقس أحسنهم خلقًا وأحكمهم جوابًا ، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على رسوخ معاني العصبية الجاهلية في النفوس التي لم تشرق عليها شمس الإسلام الساطعة .

ولقد كان جواب هذه الفئة المؤمنة من أصحاب عبادة جوابا حاسمًا ورادعًا للقيم الجاهلية التي تَبَجَّح بها زعيم أولئك القوم، حيث أجابوا بهدوء وحكمة وشجاعة ، فأنكروا وزن الناس بمعيار اللون، وبينوا أن هذا المعيار لايوجد عند المسلمين ، مع بيان مؤهلات التقدم التي اتصف بها عبادة رضي الله عنهم أجمعين .

وإزاء هذا الرد الحاسم فإن المقوقس قد اضطر إلى قبول التحدث مع عبادة بن الصامت مع طلب الرفق في الكلام حتى لايجتمع عليه هيبة لونه مع هيبة كلامه .

قال : « فتقدم إليه عبادة فقال : قد سمعت مقالتك وإنَّ في من خلفت من أصحابي ألف رجل كلهم مثلي وأشد سوادًا مني وأفظع منظرًا ، ولو رأيتهم لكنت أهيب لهم مني ، وأنا قد ولَّيت وأدبر شبابي ، وإني مع ذلك بحمد الله ماأهاب مائة رجل من عدوي لو استقبلوني جميعًا ، وكذلك أصحابي ، وذلك إنما رغبتنا وهمتنا الجهاد في الله واتباع رضوانه ، وليس غزونا عدوّا ممن حارب الله لرغبة في الدنيا ، ولاحاجة للاستكثار منها ، إلا أن الله عز وجل قد أحل ذلك لنا وجعل ماغنمنا من ذلك حلالاً ، وما يبالي أحدنا أكان له قناطير من ذهب أم كان لايملك إلا درهمًا ، لأن غاية أحدنا من

الدنيا أَكْلَة يأكلها يسد بها جوعته ، ليله ونهاره ، وشملةٌ يلتحفها، وإن كان أحدنا لايملك إلا ذلك كفاه ، وإن كان له قنطار من ذهب أنفقه في طاعة الله تعالى ، واقتصر على هذا الذي بيده ويبلّغه ماكان في الدنيا ، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ، ورخاءها ليس برخاء، إنما النعيم والرخاء في الآخرة ، بذلك أمرنا الله تعالى وأمرنا به نبيناﷺ، وعهد إلينا أن لاتكون همة أحدنا في الدنيا إلا مايمسك جوعته ويستر عورته ، وتكون همته وشغله في رضاء ربه وجهاد عدوه[1] .

وقبل أن أذكر تأثر المقوقس بهذا الكلام العظيم البليغ أحب أن أعلق قليلاً على هذا المستوى السامي الذي ارتفع إليه هؤلاء العظماء، فقد بيَّن عبادة رضي الله عنه أنه وأصحابه من الشجاعة والإقدام بحيث لو قابل أحدهم مائة من الأعداء لثبت لهم ، ثم عزا هذه القوة والثبات إلى ما يتصفون به من الزهد في الدنيا والتجرد من حظوظ النفس ، والاقتصار في المعيشة على القليل الكافي لسد الجوع وستر العورة ، وأنه يستوي في ذلك الفقراء الذين لايملكون إلا هذا والأغنياء الذين يملكون قناطير الذهب ، لأن من يملك ذلك منهم يسخِّره في طاعة الله تعالى وخدمة الإسلام ، وأن هدفهم السامي هو ابتغاء رضوان الله تعالى ، وماأعده لهم في الجنة من النعيم المقيم، وأن هذا النعيم الدائم هو الذي يجب أن يسعى إليه العقلاء بكل مايملكون من طاقة ، بخلاف نعيم الدنيا الزائل الذي يتنافس عليه ضعاف العقول وقصيرو النظر .

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٢ .

وإذا كان الأمر كذلك ، وكان هذا هو هدف المسلمين المتقين، فما الذي يشدهم إلى الأرض ، ويمنعهم من الإقـدام على الجهاد، والحال أن الجهاد يقربهم من بلوغ هذا الهدف السامي ؟!

هذا وقـد جاء في الرواية المذكـورة أن المقـوقس لما سمع جـواب عبادة تأثر بذلك وأكـبره وعظمه حيث قال لمن حوله : « هل سـمعتم مثل كلام هذا الرجل قط ؟ لقد هِبْتُ منظره ، وإن قوله لأهيب عندي من منظره ، إن هذا وأصحابه أخـرجهم الله لخراب الأرض، وماأظن مُلكَهم إلا سيـغلب على الأرض كلها ، ثم أقبل المقوقس عـلى عبادة ابن الصامت فقال : أيها الرجل الصالح قد سمعت مقالتك وماذكرت عنك وعن أصـحابك ، ولعـمـري مابلغـتم مـابلغتم إلا بماذكـرت، وماظهرتم على من ظهرتم عليـه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فـيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم ما لايُحـصى عدده، قوم معروفون بالنجـدة والشدة ، ممـن لايبالي أحـدهم من لقي ولا من قـاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقووا عليهم ، ولن تطيقـوهم لضعفكم وقلتكم، وقد أقمتم بين أظهرنا أشهرا وأنتم فـي ضيق وشدة من معاشكم وحالكم، ونحن نَرقُّ عليكم لضـعفكم وقلتكم وقلة مـابأيديكم ، ونحن تطيب أنفـسنـا أن نصـالحكم ، على أن نـفـرض لكل رجل منكـم دينارين دينارين، ولأميـركم مائة دينار ، ولخليفتكم ألف ديـنار ، فتقبضـونها وتنصرفون إلى بلادكم ، قبل أن يغشاكم مالا قوة لكم به » .

هذا وإن الإنسان المتأمل ليعجب كـيف يفكر المقوقس بهذا التفكير ويعرض هذا العرض مع يقينه واعترافـه بأن من يخاطبهم ليسوا طلاب

دنيا، وإنما هم أصحاب دين عظيم يتقيدون به ، ويبذلون جهدهم في نشره بين الأمم ، ولكنها محاولة رجل يائس أراد بها أن يصنع شيئًا يُعذر به أمام قومه ، وأمام الروم المهيمنين عليه، وهو يعلم أنهم كانوا في الشام يحاولون الصلح مع المسلمين تفاديًا لمواجهتهم .

وهنا يظهر لنا لون من ألوان المساومات الرخيصة ، حيث يحاول الصغار أن يستنزلوا العظماء من عليائهم، ليشاركوهم أفكارهم المتدنِّية، وسلوكهم الدنيوي الهابط ، وإن مما يزيد الأمر سوءًا أن من تولى هذه المساومة قد أدرك واعترف بأن المسلمين قد بلغوا من الرقي الأخلاقي درجة عظيمة خولّتهم لفتح الممالك وغلبة الأمم ، وأنهم سيملكون الأرض كلها ، ومع ذلك يساوم بما في جعبته من عروض متدنية .

ولقد كان عبادة بن الصامت رجل الموقف في إجاباته الحكيمة الحازمة حيث قال له : « ياهذا لاتغرَّنَّ نفسَك ولا أصحابك ، أما ماتخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لانقوى عليهم فلعمري ماهذا بالذي تخوفنا به ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ماقلتم حقا فذلك والله أرغب مايكون لقتالهم، وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند الله تعالى إذا قدمنا عليه، إن قُتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا من رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولاأحب إلينا من ذلك ، وإنا منكم حينئذ على إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا ، وإن الله

عز وجل قال لنا في كتابه ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [(١)] وما منَّا من رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة وأن لايرده إلى بلده ولا إلى أرضه ولا إلى أهله وولده ، وليس لأحد منا همٌّ فيما خلَّفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا .

وأما قولك إنا في ضيق وشدة من معاشنا وحالنا فنحن في أوسع السعة ،لو كانت الدنيا كلها لنا ما أردنا منها لأنفسنا أكثر مما نحن فيه، فانظر الذي تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك، ولانجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيَّتها شئت، ولاتُطمع نفسك في الباطل، بذلك أمرني الأمير ، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قَبْله إلينا .

إما إجابتكم إلى الإسلام الذي هو الدين الذي لايقبل الله غيره، وهو دين نبينا وأنبيائه ورسله وملائكته ، صلوات الله عليهم، أمرنا الله تعالى أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه، فإن فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا، وكان أخانا في دين الإسلام ، فإن قبلت ذلك أنت وأصحابك فقد سعدتم في الدنيا والآخرة، ورجعنا عن قتالكم، ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم ، وإن أبيتم إلا الجزية فأدوا إلينا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، نعاملكم على شيء نرضاه نحن وأنتم في كل عام أبدا مابقينا وبقيتم ، ونقاتل عنكم من ناوأكم، وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ، ونقوم بذلك

---

(١) سورة البقرة / ٢٤٩ .

عنكم إذ كنتم في ذمتنا ، وكان لكم به عهد علينا، وإن أبيتم فليس بيننا وبينكم إلا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب مانريد منكم، هذا ديننا الذي نَدين الله تعالى به، ولايجوز لنا فيما بيننا وبينه غيره ، فانظروا لأنفسكم » (١) .

وإننا أمام هذا الكلام الواضح العميق لانملك إلا أن نُكْبِر أولئك الرجال، ونعتبرهم النماذج العالية في الدعوة والجهاد، وتنظيم العلاقات بين أمة الإسلام والأمم الأخرى .

وإن من أبرز مانلاحظه في هذا الجواب وجميع إجابات قادة الإسلام الأوائل وضوح المبدإ الذي يدافعون عنه وينطقون باسمه، والتصميم الجازم على الخيارات الثلاثة التي تكررت معنا في كل فتوحات الإسلام باعتبارها من توجيهات النبي ﷺ .

فالقاعدة العامة التي يحملها القادة واضحة لا لبس فيها ، ثابتة لا تتغير ، ولذلك فإنه لا أمل للأعداء بتغيرها عند تغير قادة المسلمين ولا عند إبدال قادة الأعداء بمن هم أكثر فطنة ودهاء .

وإنما الذي يتغير من قائد لآخر هو نوع الأساليب الحربية ، من وضع الخطط وخداع الأعداء، وتجنيب المسلمين المهالك، والحصول على أكبر النتائج بأقل الخسائر ما أمكن ونحو ذلك .

ولقد كان عبادة موفقًا تمام التوفيق حينما واجه التخويف بجيش الروم وقوتهم ببيان المعنوية العالية لجيش المسلمين التي تعتمد على الرغبة الخالصة في الاستشهاد في سبيل الله تعالى ، وأنه كلما عظم

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٤ .

الجيش المقابل كان احتمال كثرة الـشهداء أكبر ، كما ركز على بيان أن المجـاهدين قـد فـرَّغوا أذهـانهم تمامـا مما خلَّفـوه وراءهم من الأهل والأولاد، واستـودعوا ذلك كله ربهم جل وعـلا، فليس في أذهانهم مايعـوقهم عن الإقـدام ، وإنما يهيـمن عليهم حب رؤية النصـر على الأعداء أو الشهادة وذلك يدفعهم إلى الإقدام .

وإن هذا الكلام ليـعـتـبـر مطارق مـن حـديد تنزل على رؤوس الأعداء، فتزيل ماعساه أن يكون بقي فيها من نشوة الإقدام للدفاع عن النفس والوطن .

ولهذا قال المقـوقس في جوابه : هذا لايكون أبدًا ، ماتريدون إلا أن تتخذونا عبيدًا ماكانت الدنيا .

فقال عبادة : هو ذلك فاختر ما شئت .

فقال المقوقس : أفلا تجيبـونا إلى خصلة غير هذه الخصال ؟ فرفع عبـادة يديه وقال : لا ورب هذه السـماء ورب هذه الأرض ورب كل شيء مالكم عندنا خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم .

فالتـفت المقوقس عند ذلك لأصـحابه وقال: قـد فرغ القوم فـما ترون؟ فأصـروا على رفض الجزية ولم يرضوا بالدخـول في الإسلام، فقال المقوقس لـعبادة : قد أبى القوم فما ترى؟ فـراجع صاحبك على أن نعطيكم في مرَّتكم هذه ماتمنيـتم وتنصرفون، فقام عـبادة وأصحابه وعادوا وهم على ماعرضوا عليهم من الإسلام أو الجزية أو القتال .

وقد تبـادل المقوقس الرأي مـع أصحابه وأشـار عليهم بـعد ذلك بقبول الجزية ولكنهم رفضوا ذلك فلم يكن بُدٌّ من القتال .

فتح حصن باب اليون ثم الصلح :

وقد ألح المسلمون بالقتال على من في قصر باب اليون حتى كتب الله لهم النصر عليهم [1] .

وفتح الله للمسلمين ذلك الحصن المنيع، ولام المقوقس قومه على عدم قبول الصلح فقال : ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم، ماتنتظرون؟ فو الله لنجيبنَّهم إلى ما أرادوا طوعًا، أو لنجيبنهم إلى ماهو أعظم من ذلك كرها ، فأطيعوني من قبل أن تندموا، فلما رأوا منهم ما رأوا وقال لهم المقوقس ماقال أذعنوا بالجزية ورضوا بذلك على صلح يكون بينهم يعرفونه .

وأرسل المقوقس إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه: إني لم أزل حريصًا على إجابتك إلى خصلة من تلك الخصال التي أرسلت بها إليّ، فأبى عليَّ ذلك من حضرني من الروم والقبط، فلم يكن لي أن أفتات عليهم في أموالهم وقد عرفوا نصحي لهم وحبي صلاحهم، ورجعوا إلى قولي ، فأعطني أمانا اجتمع أنا وأنت في نفر من أصحابي، وأنت في نفر من أصحابك ، فإن استقام الأمر بيننا تم لنا ذلك جميعًا ، وإن لم يتم رجعنا إلى ماكنا فيه .

فاستشار عمرو أصحابه في ذلك فقالوا : لانجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا فقال : قد علمتم ماعهد إليَّ أمير المؤمنين في عهده ، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال الثلاث التي عهد إليَّ فيها أجبتهم إليها وقبلت منهم مع ماقد حال هذا الماء بيننا وبين مانريد من قتالهم .

---

(١) النجوم الزاهرة١/ ١٥ ، فتوح مصر/ ٥٣ .

فاجتمع أمرهم على قبول الصلح وفرض الجزية (١) .

مواقف عالية لبعض المسلمين :

هذا وقد جرت لبعض المسلمين مواقف في أثناء ذلك الحصار، ومن هذه المواقف ماجاء في رواية ابن عبد الحكم رحمه الله قال : وبينما عبادة بن الصامت رضي الله عنه في ناحية يصلي وفرسه عنده رآه قوم من الروم فخرجوا إليه وعليهم حلية وبِزَّة، فلما دنوا منه سلَّم من الصلاة ووثب على فرسه ثم حمل عليهم، فلما رأوه ولوا هاربين وتبعهم ، فجعلوا يلقون مناطقهم ومتاعهم ليشغلوه بذلك عن طلبهم، فصار لايلتفت إليه حتى دخلوا إلى الحصن، ورُمِي عبادة من فوق الحصن بالحجارة ، فرجع ولم يتعرض لشيء مما طرحوه من متاعهم حتى رجع إلى موضعه الذي كان فيه فاستقبل الصلاة ، وخرج الروم إلى متاعهم وجمعوه (٢) .

وفي هذا الخبر تنكشف لنا أمور مهمة في حياة المسلمين الأوائل فهو مثال رفيع للشجاعة النادرة حيث يقوم عبادة بن الصامت رضي الله عنه بمطاردة قوم من الروم إلى أن لاذوا بحصنهم ، وهذه الشجاعة العظيمة تقوم على قوة تَمَثُّل المبادئ السامية في الذهن، حيث يعيش المسلم ويموت من أجلها، ويستهين في سبيلها بنفسه ومستقبله الدنيوي، فإذا قابله في الميدان من يعيشون لمستقبلهم الدنيوي فإنهم لايمكن أن يقفوا أمامه مهما كان عددهم وعُدَّتُهم ، لأنهم إنما

---

(١) النجوم الزاهرة ١/ ١٧ .

(٢) فتوح مصر / ٥١ ، النجوم الزاهرة ١/ ٩ .

يحصلون على مايريدون في هذا المستقبل ببقائهم على قيد الحياة أما المسلم الحق فإنه إنما يحصل على المستقبل الأخروي السعيد ببذل نفسه وماله في سبيل الله تعالى سواء استشهد أو بقي على قيد الحياة .

وفي هذا الخبر مع هذا نموذج من نماذج العفة والترفع عن الدنيا، فحينما أحس عبادة رضي الله عنه أن القوم أرادوا أن يشغلوه بأموالهم ترفَّع عن هذه الأموال ليبيِّن لهم أن المال ليس هو هدف المسلمين من الجهاد وإن كان الله تعالى قد أباح لهم الغنائم ليتقوَّوا بها على أعدائهم، ولكن حينما يكون هدف الأعداء مساومة المسلمين عن أنفسهم ومبادئهم بأموالهم فإنها مساومة مردودة لدى أقوياء الإيمان الذين اتضحت أهدافهم واستقامت مناهجهم لأنهم لا يرضون بالتخلي عن الأهداف السامية مقابل متاع عاجل مهما كان قدره وأثره .

ومن هذا المثل ندرك الحسَّ الإسلامي الواضح الذي كان يعمر تفكير أولئك الصحب الكرام، ويجعلهم يسيرون في سلوكهم على مقتضى الحكمة والعقل السليم ، فحينما يكون المال غنائم خلَّفها القتال فإنهم يأخذونها كما أباحها الله تعالى ويصرفونها في مصارفها الشرعية ، ولكن حينما يكون المال مساومة على المبادئ السامية فإنهم يترفعون عن أخذه وينزهون أنفسهم عن الإخلال بمبادئهم من أجله .

ونجد مع ذلك أن هذا الخبر يحتوي على مَثَل من الأمثلة الكثيرة التي تبين لنا مدى سلاح الرعب الذي يُنصَر به المسلمون الأتقياء، وهذا السلاح الفعَّال يوفر على المسلمين بذل طاقات كبيرة ، بينما يشل من حركة الأعداء ويبدد طاقتهم .

ومن المواقف المذكورة في ذلك مغامرة الزبير بن العوام رضي الله عنه حينما صعد على سور الحصن وحده ، وقد جاء خبر ذلك في رواية ابن عبد الحكم قال : فلما أبطأ الفتح على عمرو قال الزبير: إني أهب نفسي لله تعالى ،وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين فوضع سلَّما إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمَّام ، ثم صعد وأمرهم إذا سمعوا تكبيره يجيبونه جميعًا، فما شعروا إلا والزبير على رأس الحصن يكبِّر ومعه السيف، وتحامل الناس على السلم حتى نهاهم عمرو خوفًا أن ينكسر السلم ، وكبر الزبير تكبيرةً فأجابه المسلمون من خارج، فلم يشك أهل الحصن أن العرب قد اقتحموا جميعًا الحصن فهربوا ، وعمد الزبير بأصحابه إلى باب الحصن ففتحوه، واقتحم المسلمون الحصن (١) .

وهكذا تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليث من ليوث الإسلام ، وبطل من أبطاله العظماء، فلقد باع الزبير بن العوام نفسه رخيصة لله تعالى ، وفدى بها إخوانه ، فصعد إلى أعلى السور بمفرده، وفي ذلك من الأخطار مالايتصور قدره ، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون غرضًا لسهام الأعداء حتى يردوه قتيلا ، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه فأعمى بصائرهم عنه، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء وأنكى بهم من القذائف الفتاكة .

ولعلهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده

---

(١) فتوح مصر / ٥٢ .

فوق السور ، فإنهم لم يروا في حياتهم من يُرْخِص نفسه بهذه الصورة المذهلة ، فتوقعوا أن المسلمين استطاعوا أن يصعدوا السور ، وأن هذا الذي بدا لهم ماهو إلا طليعة المتسلقين، خصوصًا وأن الأرض قد ارتجَّت من تكبير المسلمين ، ففضلوا السلامة ، ولاذوا بالفرار .

موقف عدالة من أمير المؤمنين عمر :

هذا ومما يتعلق بهذا الفتح من المواقف موقف من مواقف العدل لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه،ويتلخص موضوع ذلك في أن عمرو بن العاص قد عقد هدنة بينه وبين الأعداء لمدة خمسة أيام، ولكن العدو خلالها هجم منه طائفة على المسلمين ليلا،وكان عمرو وجيشه على استعداد فقتلوهم وسبوا منهم وممن حولهم،فلما انتهى الفتح جاء الراهبان اللذان عقدا الصلح يطالبان عمرو بن العاص بما كان من السبي خلال الهدنة فرفض عمرو وذكَّرهما بما كان من الغدر من قومهما .

فلما علم عمر رضي الله عنه بخبر الراهبين ، قال : ألا أراهما يبصران وأنت تُجاهلون ولاتبصرون، من قاتلكم فلا أمان له، ومن لم يقاتلكم فأصابه منكم شيء ومن أهل القرى فله الأمان في الأيام الخمسة حتى تنصرم ، وبعث في الآفاق حتى رد ذلك السبي[١] .

وهذا مثل من أمثلة عدل عمر رضي الله عنه الذي اشتهر به حتى مع أعدائه ، ولقد كان لهذا وأمثاله من صور العدل التي عامل بها الصحابة رضي الله عنهم أعداءهم الأثر الكبير في إقبال الناس على الدخول في الإسلام .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/١٠٩ .

موقف في الدهاء لعمرو بن العاص :

ومن المواقف التي جرت بعد فتح حصن باب اليون موقف لقائد المسلمين عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وقد جاء ذلك في رواية أخرجها الإمام الطبري ، وفيها : أن القبط حضروا باب عمرو، وبلغ عمرًا أنهم يقولون : ما أرَثَّ العرب وأهون عليهم أنفسهم ! مارأينا مِثْلَنا دان لهم ! فخاف أن يستثيرهم ذلك من أمرهم ، فأمر بجُزُرٍ فذبحت فطبخت بالماء والملح، وأمر أمراء الأجناد أن يحضروا وأعلموا أصحابهم ، وجلس وأَذِن لأهل مصر ، وجِيء باللحم والمرق فطافوا به على المسلمين ، فأكلوا أكلا عربيا ، انتشلوا وحسَوْا وهم في العَباء ولا سلاح ، فافترق أهل مصر وقد زادوا طمعًا وجرأة ، وبعث في أمراء الأجناد في الحضور بأصحابهم من الغد ، وأمرهم أن يجيئوا في ثياب أهل مصر وأحذيتهم وأمرهم أن يأخذوا أصحابهم بذلك ففعلوا، وأَذِن لأهل مصر ، فرأوا شيئًا غير مارأوا بالأمس ، وقام عليهم القُوَّام بألوان مصر ، فأكلوا أكل أهل مصر ، ونَحَوْا نحوهم، فافترقوا وقد ارتابوا ، وقالوا : كدنا .

وبعث إليهم أن تسلحوا للعرض غدًا ، وغدا على العرض وأذن لهم، فعرضهم عليهم ، ثم قال : إني قد علمت أنكم رأيتم في أنفسكم أنكم في شيء حين رأيتم اقتصاد العرب، وهَوْنَ تَزْجِيتهم، فخشيت أن تهلكوا، فأحببت أن أريكم حالهم، وكيف كانت في أرضهم ، ثم حالهم في أرضكم، ثم حالهم في الحرب، فظفروا بكم، وذلك عيشهم وقد كَلِبُوا على بلادكم قبل أن ينالوا منها مارأيتم في اليوم الثاني ، فأحببت أن تعلموا أن من رأيتم في اليوم الثالث غير

تارك عيش اليوم الثاني إلى عيش اليوم الأول ، فتفرقوا وهم يقولون: لقد رَمَتْكم العرب بِرَجُلِهم .

وبلغ عمر رضي الله عنه فقال لجلسائه: والله إن حربه لَلَيِّنة مالها سطوة ولاسَوْرة كسَوْرات الحروب من غيره، إن عمرًا لَعِضٌّ - يعني رجل داهية - ثم أمَّره عليها وقام بها (١) .

وهذا مثل من دهاء عمرو بن العاص وخبرته الدقيقة بغوائل النفوس وأدوائها ، وبَلْسم شفائها ، فلقد قرأ في وجوه الأعداء الاستهانة بأمر المسلمين ، لِماَ رأوا من زهدهم وبساطة عيشهم، وخاف من منطقهم احتمالَ هيجان نفوسهم نحو إثارة العصيان، والعودة إلى القتال، وفي ذلك هلاك لهم وعنَتٌ شديد على المسلمين، فأراهم في اليوم الأول حال المسلمين وهم في بلادهم، ثم أراهم إياهم وهم يعيشون عيشة أهل مصر المُتْرفة ثم عرضهم عليهم في اليوم الثالث وهم مسلَّحون ، ثم خاطبهم بالمنطق الذي يفهمونه، وهو أن من تحول عن معيشة الشظف والشدة إلى معيشة الترف والنعيم لن يعود إلى المعيشة الأولى وهو يملك السلاح الذي يقاتل به ، والقوة التي تحمل هذا السلاح ، فأرعبهم بذلك ، واقتلع من رؤوسهم وساوس الشيطان الذي زين لهم سابقًا هَوَانَ أمر المسلمين ،وإمكانية التغلب عليهم .

ولا شك أن تلك الكلمات التي تحمل التهوين من شأن المسلمين لرثاثة مظهرهم لم تصدر من عقلاء القوم ،لأن العقلاء يدركون أن المظاهر من الطعام والشراب واللباس لاتقدِّم ولاتؤخر في قضايا الحرب

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١١٠ .

والسياسة ، وإنما صدرت من العامة وهم الكثرة في كل الأمم، ولهم وزن اجتماعي مؤثر، فكان لابد لقائد عبقري مثل عمرو بن العاص رضي الله عنه أن ينزل إلى مستواهم ، وأن يداوي أدواءهم بما يناسبها.

ومن هنا نعلم أن اقتصار بعض الدعاة والقادة على اجتذاب المفكرين والطبقات الخاصة يعتبر خللا يؤثر على نجاح مهمتهم فلابد من مخاطبة كل فئات المجتمع وأن يكون محتوى الخطاب وأسلوبه مناسبًا لكل طبقة .

وإن فيما قام به عمرو بن العاص من هذا المنهج البديع الذي سلكه مع عامة أولئك القوم لقطعًا لدابر أي فتنة رُبَّما اغتنمها مفكرو القوم لتدبير انتقاض على المسلمين لاتحمد عقباه ، فكان عمرو رجل الموقف الذي قد أعد للمشكلات حلولها منذ ظهور أول بوادرها، ولذلك أثنى عليه أمير المؤمنين عمر ، ووصفه بالدهاء والمكر بالأعداء.

موقف رحمة من عمرو بن العاص :

هذا ولما انتهى فتح حصن باب اليون أراد عمرو بن العاص التحول من مكانه ذلك ،وأمر بالرحيل لاستكمال فتح مصر، فحدثت حادثة واجهها عمرو بن العاص بسلوك إسلامي رفيع يدل على عمق تخلقه بمكارم الأخلاق، وقد ذكر ذلك ابن عبد الحكم رحمه الله حيث يقول : لما فتح عمرو بن العاص الحصن، وهو المسمى الآن بقصر الشمع فكان فسطاطه قبالة الحصن، فلما أراد التوجه إلى الإسكندرية أمر بنزع الفسطاط من ذلك المكان ، فلما أرادوا ذلك

وجدوا عليـه عُشَّ يمامة قـد باضت وأفرخت، فقـال عمـرو: اتركوا الفسطاط على حاله احترامًا لليمامة التي عشَّشت عليه [1] .

وفي رواية أخرى عند ابن عـبد الحكم : أن عمـرو بن العاص لما أراد التـوجه إلى الإسكندرية لقـتـال من بقي بها من الروم أمـر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرخ ، فقال عمرو بن العاص : لقد تحرَّم منا بمتحرَّم ، فأمر به فأقرَّ كما هو ، وأوصى به صاحب القصر [2] .

وهذا شاهد حيّ على ماكان يتمتع به المسلمون الأوائل من الرحمة والعطف والمواساة ، فلم تكن الحروب المتواصلة ومشاهد القتل والدماء عامـلاً على قسوة قـلوبهم وميلها إلى العـدوان والانتقـام بل وجدهم العالمُ رحمـاءَ بررة أوفياء ، ولا أدل على هيمنة الرحـمة على قلوبهم من هذا الخبر ، حيث ترك عمرو فسطاطه رحمة بالحمامة التي عششت عليه وفرخت فيه .

وإذا كان هذا القلب الكبير قد حَنَى على حمامة فأبقى خيمته من أجل أن لاتُفجـع بفراخهـا، أفلا يكون حـانيًا على بني البـشر إذا هم تخلوا عن طغيانهم وأبصروا طريق الحق ؟!

إن هذا السلوك العالي يعتبـر من أهم وسائل الدعوة إلى الإسلام فالذين يمرون على ذلك الفسطاط القائم وحـده من أجل تلك الحمامة وفراخـها، والذين يسمـعون بهذا الخبـر سيتـساءلون عن الدوافع التي دفعت هذه الأمة إلى أن تكون قوية إلى أعلى غايات القوة في القتال،

---

(١) بدائع الزهور ١/١٠٣ .

(٢) فتوح مصر / ٦٨ .

ورحيمة رقيقة إلى أسمى درجات الرحمة والرقة في حال السلم، فكيف جمعت بين هذه الخصال التي ظاهرها التناقض ؟

والذي يجيب على هذا التساؤل هو البحث عن حقيقة الدين العظيم الذي خضعت له هذه الأمة ، وأصبح هو المهيمن على تصوراتها وسلوكها في هذه الحياة ، لأن هذا الدين هو الذي جمع الله به بين قبائل العرب حتى تكونت منهم النواة الأولى للأمة الإسلامية، فكل محاولات العظمة ، وجميع نواحي الابداع التي تمت من قادة المسلمين وجنودهم إنما هي من ثمرات الهداية إلى هذا الدين العظيم.

وأخيرًا فإننا نجد في هذا الخبر لفتة مهمة نحو استشعار أولئك العظماء رقابة الله عز وجل في كل خطوة يخطونها، فلو أن هذا القائد العظيم أمر بإزالة الفسطاط فمن الذي سيلومه على هذا التصرف؟ لكنه يعلم أن الله تعالى مطلع عليه فهو يراقبه جل وعلا، ويعلم أن معيته سبحانه لعباده بالنصر والتأييد إنما تكون بمعيتهم له بالطاعة والخضوع والتعظيم ، وإنما يَستنزل المسلمون نصر الله سبحانه برحمتهم خلقه الضعفاء وإن كانوا من العجماوات التي لاحول لها ولاقوة .

* * *

٤ - فتح الإسكندرية -

توجه عمرو بجيشه نحو الإسكندرية ، وفي طريقه إليها جرت بينه وبين أهل تلك البلاد حروب كان النصر فيها حليف المسلمين، ومن المواقف التي تذكر في ذلك أن عبد الله بن عمرو بن العاص أصيب بجراحات كثيرة في معركتهم مع أهل الكريون فجاءه رسول أبيه يسأله عن جراحه فقال عبد الله: أقول إذا ماجاشت النفس اصبري، فعما قليل تُحمدي أو تلامي ، فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره بما قال فقال عمرو : هو ابني حقًا [1] .

وهذا موقف من مواقف الصبر والتحمل يذكر لعبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما الذي اشتهر بالعلم والعبادة، فجمع إلى ذلك الشجاعة والصبر على الشدائد .

ووصل عمرو بجيشه إلى الإسكندرية فحاصرها وكان فيها أكبر حامية للروم، وكانوا يهتمون بها كثيراً ، كما جاء في رواية لابن عبدالحكم أن رسل ملك الروم تختلف إلى الإسكندرية في المراكب بمادة الروم ، وكان ملك الروم يقول : لئن ظهرت العرب على الإسكندرية إن ذلك انقطاع ملك الروم وهلاكهم، لأنه ليس للروم كنائس أعظم من كنائس الإسكندرية ، وإنما كان عيد الروم بالإسكندرية حيث غَلَبت العرب على الشام ، فقال الملك : لئن غلبونا على الإسكندرية لقد هلكت الروم ، وانقطع ملكها ، فأمر بجهازه ومصلحته لخروجه إلى الإسكندرية حتى يباشر قتالها بنفسها

---

(١) فتوح مصر / ٥٧ .

إعظامًا لهـا، وأمر أن لايتخلـف عنه أحد من الروم ، وقال : مـابقاء الروم بعد الإسكندرية! فلما فـرغ من جهازه صرعه الله فـأماته وكفى المسلمين مؤنـته ، وكان مـوته في سنة تسع عشرة ، فكـسر الله بموته شوكة الروم، فرجع جمع كثير ممن كان قد توجه إلى الإسكندرية[1] .

وهكذا تبين لنا بوضوح أن الله سبحـانه مع أوليائه المؤمنين بنصره ودفعـه وتأييده ، فـالروم حينما فـقدوا الشام وجـدوا من الإسكندرية عوضًا عنها فركزوا اهتمامهم بها،وحينما علم هرقل بغزو المسلمين لها قال كلمـته المذكورة : لئن غلبونا علـى الإسكندرية لقد هلكت الروم وانقطع ملكهـا ، فعزم على تجـهيز جيش عـظيم يقوده بنفسـه للدفاع عنها، ولو تم ذلك لوجد المسلمون منه مشـقة عظيمة، ولكانوا بحاجة إلى إمدادات كبيرة ، وربما اضطروا لسحب بعض جيوشهم من الشام، وفي ذلك إضعاف لوجودهم فيها .

ولكن الله سبحانه سلَّم المسلمين من هذا البلاء العظيم حيث أخذ روح هرقل ، ولمَّا يغـادر بلاده ، فرجع أكثـر الجيش الذي كـان توجه إلى الإسكندرية .

ومن هنا نعلم أن على المسلمين أن يسعوا في جهادهم مع الأعداء بما لديهم من إمكانات وقوة، مع التـوكل على الله تعالى، وأن يؤمنوا بأنه جل وعـلا يتـولى أمـرهم في الخـروج من المحن والشـدائد التي يفاجئون بها .

من أمثلة دهاء عمرو وبديهته :

ومن مواقف الذكـاء والدهاء التي تذكر لعمـرو بن العاص رضي

---

(١) فتوح مصر / ٥٨ .

الله عنه مارواه ابن عبد الحكم من رواية يزيد بن أبي حبيب قال: خرج طرف من الروم من باب حصن الإسكندرية فحملوا على الناس فقتلوا رجلا من مُهْرة فاحتزوا رأسه وانطلقوا به ، فجعل المُهْرِيُّون يتغضبون ويقولون : لاندفنه أبدًا إلا برأسه ، فقال عمرو بن العاص: تتغضَّبون كأنكم تتغضبون على من لايبالي بغضبكم ، احملوا على القوم إذا خرجوا فاقتلوا منهم رجلا ثم ارموا برأسه يرموكم برأس صاحبكم ، فخرجت الروم إليهم ، فاقتتلوا ، فقُتِل من الروم رجل من بطارقتهم فاحتزوا رأسه فرموا به إلى الروم ، فرمت الروم برأس المهري إليهم ، فقال : دونكم الآن فادفنوا صاحبكم [1] .

وهكذا نجحت خطة عمرو الذكية في استثارة الأعداء ، وذلك بالتظاهر لهم بأن المسلمين لم يبالوا بكيد الأعداء حيث أظهروا لهم عدم الاهتمام بالاحتفاظ برؤوس القتلى ، فرد عليهم الروم بالمثل ورموا برأس القتيل المسلم .

ولنفرض أنه لم يحصل شيء من ذلك فيكفي في نجاح خطة عمرو أنه دفع المهريين إلى الحماس في القتال، وأوقف ماكانوا فيه من النقاش الذي عاقهم عن مواصلة القتال .

موقف لأحد المجاهدين :

ومما يذكر من مواقف هذا الفتح ماأخرجه ابن عبد الحكم من رواية بكر بن عمرو الخولاني : أن عبد العزيز بن مروان حين قدم الإسكندرية سأل عن فتحها، فقيل له: لم يبق ممن أدرك فتحها إلا شيخ كبير من الروم ، فأمرهم فأتوه به فسأله عما حضر من فتح

---

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

الإسكندرية، فقال : كنت غلاما شابا ، وكان لي صاحب ابن بطريق من بطارقة الروم فأتاني فقال : ألا تذهب بنا حتى ننظر إلى هؤلاء العرب الذين يقاتلوننا ! فلبس ثياب ديباج وعصابة ذهب وسيفًا مُحَلًّى، وركب برذونا سمينا كثير اللحم، وركبت أنا برذونا خفيفًا، فخرجنا من الحصون كلها حتى برزنا على شرف ، فرأينا قومًا في خيام لهم عند كل خيمة فرس مربوط ورمح مركوز، ورأينا قومًا ضعفاء، فعجبنا من ضعفهم ، وقلنا : كيف بلغ هؤلاء القوم مابلغوا؟ فبينا نحن وقوف ننظر إليهم ونعجب إذ خرج رجل منهم من بعض تلك الخيام فنظر فلما رآنا حل فرسه فمعكه ثم مسحه ووثب على ظهره وهو عُرْي، وأخذ الرمح بيده وأقبل نحونا ، فقلت لصاحبي: هذا والله يريدنا ، فلما رأيناه مقبلا إلينا لايريد غيرنا أدبرنا مولّين نحو الحصن ، وأخذ في طلبنا فلحق صاحبي لأن برذونه كان ثقيلا كثير اللحم فطعنه برمحه فصرعه، ثم خضخض الرمح في جوفه حتى قتله ، ثم أقبل في طلبي وبادرت ، وكان برذوني خفيف اللحم فنجوت منه حتى دخلت الحصن، فلما دخلت الحصن أمنت فصعدت على سور الحصن أنظر إليه ، فإذا هو لما أيس مني رجع فلم يبال بصاحبي الذي قتله ، ولم يرغب في سلَبه ، ولم ينزعه عنه، وقد كان سلبه ثياب الديباج وعصابة من ذهب ، ولم يطلب دابته، ولم يلتفت إلى شيء من ذلك وانصرف من طريق أخرى وأنا أنظر إليه ، وأسمعه يتكلم بكلام ورفع به صوته ، فظننت أنه إنما يقرأ بقرآن العرب، فعرفت عند ذلك أنهم إنما قووا على ماقووا عليه وظهروا على البلاد لأنهم لايطلبون الدنيا ، ولايرغبون في شيء منها، حتى بلغ خيمته ،

فنزل عن فرسه فربطها، وركز رمحه ، ودخل خيمته ولم يُعْلِم بذلك أحدًا من أصحابه .

فقال عبد العزيز - يعني ابن مروان - : صف لي ذلك الرجل وهيئته وحالته، فقال : نَعَمْ هو قليل دميم، ليس بالتام من الرجال في قامته ولا في لحمه ، رقيق آدم كوسج، فقال عبد العزيز عند ذلك: إنه ليصف صفة رجل يماني (١) .

وفي هذا الخبر مواقف جليلة ، منها الاهتمام البالغ بأمور الآخرة، وعدم الاكتراث بالدنيا ومظاهرها ، وأنّ ذلك كان من الأسباب المهمة في انتصارات المسلمين الأولى وقد سبق الكلام على هذا الموضوع .

ومنها شجاعة المسلمين الأوائل ، ومسارعتهم إلى بذل أرواحهم رخيصة في سبيل الله تعالى ، وقد تقدم الكلام على ذلك أيضًا .

ومنها محاولتهم إخفاء أعمالهم الصالحة ، وعدم التمدح بما قاموا به من أعمال جليلة قد تدخل في مجال المغامرات ، ومع ذلك فإنهم لايفاخرون بهذه الأعمال ، ولا يذكرونها ، لأنهم إنما يرجون ثوابها من الله تعالى ، وهو سبحانه مطلع عليهم، وكلما بَالَغُوا في إخفاء عملهم كلما كان العمل أبلغ في الإخلاص .

فهذه القصة المشتملة على التضحية بالنفس والترفع عن متاع الدنيا، والزهد في الجاه والذكر، ماكانت لتُعرف لولا أن راويها الذي شاهدها قصها بعد ذلك .

---

(١) فتوح مصر / ٥٨ .

وهذا يعتبر من أهم مؤهلات العظمة والسيادة في حياة الجيل الإسلامي الأول .

موقفان لعمرو ومسلمة بن مخلّد :

هذا ومن مواقف المسلمين في فتح الإسكندرية ما أخرج خبره ابن عبد الحكم من رواية خالد بن نجيح قال: أخبرني الثقة أن عمرو بن العاص قاتل الروم بالإسكندرية يومًا من الأيام قتالاً شديدًا ، فلما استحر القتال بينهم بارز رجل من الروم مسلمة بن مخلد ، فصرعه الرومي وألقاه عن فرسه ، وهوى إليه ليقتله حتى حماه رجل من أصحابه ، وكان مسلمة لايقام لسبيله ولكنها مقادير ، ففرحَتْ بذلك الروم ، وشق ذلك على المسلمين ، وغضب عمرو بن العاص لذلك، وجاء في الرواية أنه اتهم مسلمة بالجبن واشتد عليه بالكلام ، وأن مسلمة غضب من ذلك ولم يراجعه .

قال : ثم اشتد القتال حتى اقتحموا حصن الإسكندرية فقاتلهم العرب في الحصن ، ثم جاشت عليهم الروم حتى أخرجوهم جميعًا من الحصن إلا أربعة نفر بقوا في الحصن، وأغلقوا عليهم باب الحصن، أحدهم عمرو بن العاص، والآخر مسلمة بن مخلد، ولم نحفظ الآخرين، وحالوا بينهم وبين أصحابهم، ولاتدري الروم من هم، فلما رأى ذلك عمرو بن العاص وأصحابه التجؤوا إلى ديماس من حماماتهم فدخلوا فيه فاحترزوا به ، فأمروا روميًا أن يكلمهم بالعربية، فقال لهم : إنكم قد صرتم بأيدينا أسارى فاستأسروا ولاتقتلوا أنفسكم، فامتنعوا عليهم، ثم قال لهم : إن في أيدي أصحابكم منا رجالاً أسروهم ونحن نعطيكم العهود نفادي بكم

أصحابنا ولانقتلكم ، فأبوا عليهم ، فلما رأى ذلك الرومي منهم قال لهم : هل لكم إلى خصلة وهي نَصَفٌ بيننا وبينكم، أن تعطونا العهد ونعطيكم مثله على أن يبرز منكم رجل ومنا رجل، فإن غلب صاحبنا صاحبكم استأسرتم لنا وامكنتموتا من أنفسكم ، وإن غلب صاحبكم صاحبنا خلَّينا سبيلكم إلى أصحابكم فرضوا بذلك وتعاهدوا عليه، وعمرو ومسلمة وصاحباهما في الحصن في الديماس، فتداعوا إلى البراز، فبرز رجل من الروم قد وثقت الروم بنجدته وشدته، وقالوا: يبرز رجل منكم لصاحبنا ، فأراد عمرو أن يبرز فمنعه مسلمة وقال: ماهذا تخطئ مرتين، تشذ عن أصحابك وأنت أمير، وإنما قوامهم بك، وقلوبهم معلقة نحوك، ولايدرون ماأمرك ، ثم لاترضى حتى تبارز وتتعرض للقتل ، فإن قُتلت كان ذلك بلاء على أصحابك، مكانك وأنا أكفيك إن شاء الله ، فقال عمرو : دونك فربما فرَّجها الله بك، فبرز مسلمة والرومي فتجاولا ساعة ، ثم أعانه الله عليه فقتله، فكبَّر مسلمة وأصحابه ، ووَفَى لهم الروم بما عاهدوهم عليه، ففتحوا لهم باب الحصن ولاتدري الروم أن أمير القوم فيهم، حتى بلغهم بعد ذلك فأسفوا على ذلك وأكلوا أيديهم تغيظًا على ما فاتهم .

فلما خرجوا استحيى عمرو مما كان قال لمسلمة حين غضب، فقال عمرو عند ذلك : استغفر لي ماكنت قلت لك ، فاستغفر له وقال عمرو: ما أفحشت قط إلا ثلاث مرار ، مرتين في الجاهلية وهذه الثالثة ، ومامنهن مرة إلا وقد ندمت واستحييت ، وماااستحييت من

واحدة منهن أشد مما استحييت مما قلت لك ووالله إني لأرجو أن لاأعود إلى الرابعة مابقيت [1] .

وهكذا نجد أنفسنا أمام مواقف إسلامية متعددة الأنواع في هذا الخبر، فما بين احتمال كبير للأذى والإهانة ، إلى نماذج من الاقدام والشجاعة ، إلى مظاهر المساواة بين القادة والجنود، إلى اعتراف القادة بأخطائهم أمام الجنود واعتذارهم منهم ، كما نرى التجرد من حظ النفس وتقديم المصلحة العامة .

فبينما نرى مَسْلَمة بن مُخَلَّد الذي يُعَدُّ بطلا من أبطال المسلمين يُقْدم على المبارزة بعد بذل مجهود كبير في حرب ضارية، إذ به يُخفق في تحقيق النصر على غير المعهود منه، ولقد كانت هفوة من فارس كبير، قيل إنه يعدل ألفا من الرجال ، ولكن لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة .

ولقد كان وَقْعُ هذا الإخفاق عظيمًا على نفوس المسلمين، وخاصة عمرو بن العاص حيث تكلم على مسلمة بكلام شديد، ولكن مسلمة لم يرد عليه، ولئن كان عمرو بن العاص مشتهرًا بالحلم والحكمة فإنه قد خرج عما أُلف منه ذلك اليوم ، وأهان فارسًا له دوره الكبير في حياة المسلمين الجهادية .

ولقد كان أثر هذا التصرف كبيراً على عمرو نفسه، حيث اعتذر بعد ذلك من مسلمة وأبان له أن هذا التصرف هو أكبر خطأ أرتكبه في حياته كما جاء في الرواية .

---

(١) فتوح مصر / ٥٩ .

أما الأعذار التي يمكن أن يعتذر بها لعمرو حينما أصدر هذا اللوم العنيف فإنهـا تظهر حينمـا نعلم أن المسلمين آنذاك قد امـتلكوا سلاح المبـارزة ، ولم يعرف أن أحـد فرسـانهم الكبار هُزم في مـبارزة قـبل ذلك، والمبـارزة لها أثرها الكبـير في رفع مـعنويات الجيش وخـفض معنويات العدو عند الانتصار ، وقد كان كـبار القادة يلجئون إليها إذا تأزمت المعركة لرفع معنوية المسلمين كـما تقدم لنا من خالد بن الوليد يوم اليمامة .

فلما حصل في معركة الإسكندرية ماحصل من إخفاق مسلمة بن مخلد، ولصعوبة ماواجهه المسلمون من اعدائهم، وطول مدة الحصار، ولِماَ أُثقل به فكر عمرو من التخطيط لمواجهة الأعداء ، وتحمل مسئولية الجيش الإسلامي ، ومرارة الاخفاق في إكمال فتح مصر . . لذلك كله وقعَتْ من عمـرو هذه الزلة في ساعة غضب، وكـفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه .

ونلاحظ في سكوت مسلـمة وعدم رده على عمـرو مقدرة فـائقة على امتلاك النفس عند الغضب، فهذا مثال رفيع لخلق الحلم الذي هو من أهم عناصر السيادة .

كـما يدلنا ذلـك على الأدب العالي الـذي كان يتـمـتع به كبـار المسلمين مع قادتهم، حيث إن الهيبة التي تتكون لقادة المسلمين بموجب لزوم طاعـتهم شـرعًـا ، وبمعاملتـهم الإسـلاميـة لجنودهم يجب أن لاتُمتهن لمجرد خطأ يصدر من القائد لأحدهم .

كمـا نلاحظ في اعتذار عمـرو لمسلمة مثـلا ساميًا لتـواضع قادة

المسلمين ، وعـدم اغتنام مناصـبهم لفرض سـيطرتهم والتعـالي على تابعيهم .

وإذا جمـعنا بين تصرف عـمرو القـائد ومسلمـة الجندي في هذه المعركة يتبين لنا أيُّ مستوى أخلاقي بلغه المسلمون الأوائل .

وننتقل إلى المشكلة الصعبة التي واجهها عمرو مع ثلاثة من جنوده حـينمـا انفـردوا عن المسـلمين داخل حـصـون الاعـداء ، والمواقف الإسلامية التي جرت خلال ذلك .

إن انفـراد قـائد المسـلمين مع ثلاثة من جنوده دلـيل على حـجم المشاركة التي يقوم بها قادة المسلمين في معاركهم مع الأعداء، كما أنه دليل على ضراوة هذه المعركة التي خاضوها، حيث فرقتهم واضطرت القائد إلى أن ينفرد بهذا العدد القليل .

وأمر آخر نلاحظه في هذا الخـبر ، وهو أن الروم قطعًا لم يكونوا يعرفون قائد المسلمين ،فلو عرفوه لسـاوموا عليه أبلغ مساومة، وكون قادة المسلمين غـالبًا غير مـعروفين للأعداء إنما هو من ثمـرات المساواة التي يعيـشها المسلمون، حـيث لافرق في المساكن واللبـاس بين القادة والجنود ، بينما كان قادة أعدائهم معروفين بتميزهم باللباس والمسكن، فيكونـون هدفا لغارة المسلمـين في الغالب، والغريب فـي الأمر أنهم كانوا لايتنازلون غالبـا عن هذه الطبقية حتى في حـال الحرب، مع ما يُعرِّضهم ذلك من فقدان الأمن والاستهداف للهجوم المضاد .

ومن المواقف البارزة في هذا الخـبر أن عمرو بن العـاص مع كونه قائد المسلمين قد اسـتعد لمبارزة الرومي الذي انتخبـه الروم لمبارزة أحد

المسلمين الأربعة ، وفي هذا بيـان لما يتصف به عمـرو بن العاص من الشجاعة والإقدام والتضحية ، ولئن كانت لديه آمال عريضة في حكم مصر ومـايترتب على ذلك من الدعوة إلى الإسـلام وإقراره على يديه فإنه يؤمن بقـضاء الله وقدره ، ويـعلم أن إقدامه على المبـارزة لايقدم أجله عن موعده الذي كتبه الله له ، وإلى هذا الإيمان الراسخ بالقضاء والقدر ترجع نسبة كبـيرة من دوافع الإقدام المذهل عند الصحابة رضي الله عنهم ومن جاء بعدهم من المؤمنين الصادقين .

ونرى أخـيرًا في تدخُّل مـسلمة بن مـخلَّد نموذجًا عـاليًا للـفداء والتضحيـة حيث عارض عمرًا في تقدمه للمبـارزة ، وتقدم هو للقيام بهذا الدور الخطير ، وإذا لاحظنا ما تقدم من النقد الشديد الذي وجهه عمرو لمسلمـة حينما أخفق في المبـارزة السابقة يتبين لنا مـا جُبل عليه أبناء ذلك الجيل من التجرد عن المصالح الذاتية والتـقدم لما فيه مصلحة المسلمين العامة .

وقد يقول قائل : لماذا لم يُقْدِم الروم على قتال هؤلاء ، وإنما هم أربعة نفـر فيفتـحوا عليهم البـاب بالقوة ويقاتلوهم حـتى يقتلوهم أو يأخذوهم أسرى ؟

فأقـول : إنهم لم يكونوا يشعـرون بأنهم أمام أربعة رجـال عاديين وإنما بأنهم أمام أربعة أسود أشاوس ، والروم كـسائر الكفار يحافظون أولاً على أرواحهم ، وكل واحـد منهم يخشى أن يكون هو الضحـية في قتال هؤلاء ، كـما لو هجم أسد على مجمـوعة من الناس فإنهم في الغالب يلجئون إلى الفرار وإن كان معهم أسلحة ، فلذلك فضلوا

التفاوض معهم ، وهذا من أدلة تفوق المسلمين على أعدائهم في الثبات والتضحية .

وقد يقال : لماذا لم يتركوهم محبوسين حتى يموتوا جوعًا أو يفادِي بهم المسلمون أنفسهم بأسراهم ؟

فيقال : إن الروم كانوا يخشون من ضراوة هجوم المسلمين وكَرَّتهم عليهم فيما إذا كان لهم أسرى يريدون إنقاذهم ، وقد كانوا يعانون من بأس المسلمين من غير ذلك ، فكيف إذا أضيف إلى دوافع إقدام المسلمين هذا السبب .

فلذلك لجئوا إلى هذا العرض الأخير ، وشجعهم عليه ثقتهم بشجاعة صاحبهم ، فرجوا أن ينتصر فيستأسر لهم المسلمون الثلاثة ليفادوا بهم عن أسراهم لدى المسلمين .

ولكن الله تعالى خيب آمالهم فانتصر مسلمة على صاحبهم .

كتاب من أمير المؤمنين عمر :

لقد ظل المسلمون يحاصرون الإسكندرية عدة شهور، فلما تأخر فتحها كتب إليهم أمير المؤمنين في ذلك ، كما أخرج ابن عبد الحكم من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه قال : لما أبطأ على عمر بن الخطاب فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد لقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، إنكم تقاتلون منذ سنتين، وماذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تبارك وتعالى لاينصر قومًا إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ماكنت أعزف،

إلا أن يكونوا غيَّرهم ما غيَّر غيرهم ، فإذا أتاك كتابي فاخطب الناس وحُضَّهم على قتال عدوهم ، ورغِّبهم في الصبر والنية ، وقَدِّم أولئك في صدور الناس ، ومُر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تَنَزُّل ووقت الإجابة ، وليعجَّ الناس إلى الله تعالى ويسألوه النصر على عدوهم .

فلما أتى عمرًا الكتاب جمع الناس وقرأ عليهم كتاب عمر، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبوا إلى الله عز وجل ويسألوه النصر، ففعلوا ففتح الله عليهم (١) .

وفي هذا الكتاب الذي يستبطئ فيه أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فتح بقية البلاد المصرية نجده يذكِّر الجيش الإسلامي الذي كان يحاصر الإسكندرية بلزوم حياة الزهد وعدم الجنوح نحو حياة الترف، ويعزو تأخر الفتح لما قد يكون الجنود المسلمون أحدثو من فعل معصية أو تكاسل عن طاعة أو ميل إلى متاع الدنيا من المال أو الجاه، ثم يوجه الجيش إلى صدق النية مع الله تعالى ، والتزام الصبر لأن النصر مع الإخلاص والصبر .

وأخيرًا يوجه أمير المؤمنين قائد الجيش الإسلامي إلى التزام خطة من الخطط الحربية التي يراها أنجح في بلوغ المقصود ، وهي أن يكون الهجوم بشكل موحد في وقت واحد، بحيث تكون الهجمة من جميع

---

(١) فتوح مصر / ٦٠ .

الجيش كهجمة رجل واحد ، وحينما تكون الهجمة الموحدة فإن العدو لايستطيع أن يقف أمام هؤلاء المقاتلين ، لأن قوة اثني عشر ألفا تجتمع فتكون كتلة واحدة ، وهذا مستفاد من توجيه الله تعالى عباده المؤمنين إلى التضامن والتلاحم وتوحيد الهجوم حيث يقول تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ** ﴾ [1] .

إنه حينما يجتمع عشرة رجال على دفع كتلة ثقيلة أوْجَرِّها فإنهم ينجحون حينما تتفق قوتهم في وقت واحد ، ويفشلون حينما تتفاوت قوتهم في التوقيت ولذلك كان هذا التوجيه في غاية الأهمية، لأن تطبيق الهجوم الجماعي الموحد إما أن يقضي على قوة الأعداء لقوة اندفاعه ، وإما أن يحدث في جيشهم شرخًا كبيرًا يتسبب في فصل قواتهم وإضعافها .

ولم يُغفِل عمر رضي الله عنه في هذا التوجيه أن يذكِّر الجيش الإسلامي بأهمية الاتصال بالله تعالى ، واستنزال النصر منه، وهو الأهم في هذا الموضوع ، فوجههم إلى اختيار الوقت الأفضل للهجوم حيث ساعة الإجابة ونزول الرحمة يوم الجمعة،وفي هذا جمع بين فعل الأسباب الممكنة في طلب النصر مع التوكل على الله تعالى وحده.

استشارة عمرو أهل الرأي ونهاية المعركة :

أما موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه من ذلك فقد ضجر هو أيضًا من تأخر الفتح ، فاستشار كبار أصحابه في هذا الأمر ، يبين

---

(١) سورة الصف / ٤ .

ذلك مارواه ابـن عبد الحكـم : أن عمرو بن العـاص قال لمسلـمة بن مُخَلَّد : أَشرْ علـيَّ في قتال هؤلاء ، فقال له مـسلمة : أرى أن تنظر إلى رجل له معرفة وتجارب من أصحاب رسول الله ﷺ فتعقد له على الناس ، فيكون هو الذي يبـاشر القتـال ويكيفيك، قال عـمرو: ومَنْ ذلك؟ قال : عبادة بن الصامت.

قال : فـدعا عمرو عـبادة فأتاه وهو راكب على فرسـه، فلما دنا منه أراد النزول، فـقال له عـمرو : عـزمت عليك أن لاتنزل، ناولني سنان رمحك، فناوله إياه ، فنـزع عمرو عمـامته عن رأسه وعـقد له وولاه قتال الروم ، فتـقدم عبادة مكانه فصافَّ الروم وقـاتلهم ، ففتح الله على يديه الإسكندرية من يومهم ذلك .

وفي رواية أخرى عند ابن عبد الحكم قال: لما أبطأ على عمرو بن العـاص فتح الإسكندرية استـلقى على ظهـره، ثم جلس فقـال: إني فكرت في هذا الأمر فإذا هو لايُصـلح آخره إلا ما أصلح أوله - يريد الأنصار - فـدعا عبادة بن الصـامت فعقد له ، فـفتح الله على يديه الإسكندرية في يومه ذلك [1] .

وهذه مشورة صادقة ، ورأي صـائب ، فإن القائد العام الذي هو المسئول الأول عن الجيش لايكون همُّه الأول هو الإقدام المندفع، بقدر مـا يكون همه الحـفاظ على مـركز القـيادة ، حـتى لايكون عرضـة للاجتياح من الأعداء ، فيكون سببا في حصول الخلل في الجيش، فإذا أناب القائد العام من يتولى عنه القيادة المباشرة ممن يشتهرون بالشجاعة

(١) فتوح مصر / ٦٠-٦١

والتجرد ، فإن الشيء الذي سيشغل بال هذا القائد هو الإقدام بقوة للحصول على النصر ، لأن إصابته لاتعني إصابة الجيش، ولا وقوع الخلل فيه .

هذا وإن تنازل عمرو بن العاص عن القيادة لعبادة بن الصامت يشبه تنازل أبي عبيدة بن الجراح في اليرموك ، حينما أسند القيادة لخالد بن الوليد رضي الله عنهم أجمعين .

وهذا التنازل يدل دلالة واضحة على أن أولئك الصحابة لم يكن هدفهم أن يبنوا أمجاداً لأنفسهم ، ولا أن يخلِّدوا ذكرهم، ولو كانوا يلاحظون هذا الهدف ماكان منهم هذا التنازل ، حتى لا يذهب شرف الانتصار لغيرهم .

وهذا التنازل مبعثه شعور القائد بأنه قد استنفذ كل طاقته في القيادة ، ويرجو أن يَتمَّ ما استغلق من أمر الفتح على يَدَيْ من يتوسم بهم الخير ويتفاءل بصلاحهم ، فيلغي من حسابه ذاته وسمعته ليحافظ على أمر الأمة ومصلحتها .

ولو أن جميع المسئولين لاحظوا هذا الهدف السامي فأسندوا مهماتهم أو بعضها لغيرهم من أهل الكفاءة ، رجاء تحقق النجاح على أيديهم لتجنبت الأمة كثيراً من أسباب الفشل ، ولتقدمت كثيراً في معارج الكمال .

وفي الحقيقة فإن مَنْ صنع ذلك يكتسب من السمعة ثناء أهل الصلاح والعقول الراجحة ، وإن لم يقصد ذلك ، لأنهم سيكْبرون فيه زهده في الرئاسة والصدارة ، ويقدِّرون اهتمامه الكبير بمصلحة أمته، ونجاح مهمته .

هذا وإني لاأريد أن أترك هذه الرائعة من السلوك العالي دون أن أنوه بموقف عمرو حينما ألح على عبادة بأن لاينزل عن فرسه وألبسه عمامته بيده وهو فوق فرسه ، وفي ذلك تكريم لأهل الفضل ، ورفع لمكانتهم في المجتمع ، وهو إضافة إلى ذلك يعتبر شاهداً حيًّا على ماكان يتصف به قادة المسلمين الأوائل من العقل الراجح ، والتواضع الجمّ .

ومما جاء في أخبار هذا الفتح ماأخرجه ابن عبد الحكم عن جنادة ابن أبي أمية قال : دعاني عبادة بن الصامت يوم الإسكندرية وكان على قتالها ، فأغار العدو على طائفة من الناس ، ولم يأذن لهم بقتالهم فسمعني فبعثني أحجز بينهم ، فأتيتهم فحجزت بينهم، ثم رجعت إليه فقال : أَقُتِل أحد من الناس هنالك ؟ قلت: لا، قال: الحمد لله الذي لم يقتل أحد منهم عاصيا (١) .

وهذا يعني أنهم استمروا في الهجوم على الأعداء ولم يكتفوا بالدفاع، وهذا الأمر لابد فيه من إذن القائد، وقد حكم عبادة على من فعل ذلك بالعصيان وحمد الله تعالى أنهم لم يموتوا على ذلك، وهذا يدل على مقدار اهتمام قادة المسلمين بتنظيم أمور الجيش ومن ذلك لزوم طاعة القائد واستئذانه في أي عمل يُقدم عليه الجنود ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين النتائج السيئة المترتبة على معصية القائد، أو التصرفات الفردية .

(١) فتوح مصر / ٦١ .

رسول من عمرو إلى أمير المؤمنين بالفتح :

هذا وقد بعث عمرو بن العاص معاوية بن خديج وافدًا إلى عمر ابن الخطاب بشيرًا بالفتح فقال له معاوية : ألا تكتب معي؟ فقال له عمرو : وما أصنع بالكتاب ؟ ألست رجلا عربيًا تُبَلِّغ الرسالة ومارأيت وحضرت ؟ فلما قدم على عمر أخبره بفتح الإسكندرية فخرَّ عمر ساجدًا وقال : الحمد لله .

ذكره ابن عبد الحكم ، ثم ذكر عن معاوية بن خديج أنه قال : بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية ، فقدمت المدينة في الظهيرة ، فأنخت راحلتي بباب المسجد، ثم دخلت المسجد فبينا أنا قاعد فيه إذ خرجت جارية من منزل عمر بن الخطاب فرأتني شاحبًا عليَّ ثياب السفر، فأتتني فقالت : من أنت ؟ قال: فقلت : أنا معاوية بن خديج رسول عمرو بن العاص، فانصرفت عني، ثم أقبلت تشتَدُّ أسمع حفيف إزارها على ساقها- أو على ساقيها - حتى دنت مني فقالت: قم فأجب أمير المؤمنين يدعوك، فتبعتها ، فقال : ما عندك ؟ فقلت : خير ياأمير المؤمنين فتح الله الإسكندرية ، فخرج معي إلى المسجد، فقال للمؤذن، أذِّن في الناس، الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس ، ثم قال لي : قم فأخبر أصحابك ، فقمت فأخبرتهم ، ثم صلى ودخل منزله واستقبل القبلة فدعا بدعوات ، ثم جلس فقال: ياجارية هل من طعام؟ فأتت بخبز وزيت، فقال : كل فأكلت على حياء ، ثم قال : كل ، فإن المسافر يحب الطعام ، فلو كنت آكلا لأكلت معك ، فأصبت على حياء، ثم

قال: ياجارية هل من تمر ؟ فأتت بتــمر في طبق فقال : كل ، فأكلت على حيــاء ، ثم قال : ماذا قلت يامــعاوية حين أتيت المسجــد قال: قلت أمير المؤمنين قائل - أي نائم في الظهــيرة - قال : بئس ماقلت- أو بئس ماظننت - لئن نمت النهار لأضــيِّعَنَّ الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعن نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية [1] .

ومن هذا الخبــر نستنتج أن المسجــد في عصر الإســلام الأول كان يمثِّل أهم وسائل الإعلام ، حيث يجتــمع المسلمون فيه بنداء : الصلاة جامــعة ، وهذا النداء يعني أن هناك أمرًا مــهمًّا سـيتم إبلاغه لعــموم المسلمين فإذا اجــتمعــوا أُلقيت عليهــم البيانات العــسكرية ، والأمور السياسية والاجتماعية وغير ذلك .

وإذا كان الفكر قد يجنح إلى أن هذه هي الوســيلة المتاحة لهم في ذلك الوقت ، فينبغي أن لانَغفَل عن ملاحظة مهمة وهي مايضفيه جو المســجد الروحي من ضــرورة الالتزام بمكارم الأخــلاق ، والبعــد عن مساوئهــا ، فليس من المتوقع ممن قام يلقى بيانًا ، أو يصــدر تعليمات في المســجد أن يقع منه الكذب والتــزوير ، ولا أن يغتنم غــفلة الناس ليصوغ تصوراتهم كما تملي عليه أهواؤه ومصالحه الخاصة، أو مصالح من يعملون معه ، أو يعمل لصالحهم .

وهذا لايعني أن الصحابة رضي الله عنهم لو أذاعــوا هذه البيانات ونحوها خارج المسجد لوقع منهم التــزوير والتضليل فإن إيمانهم القوي يحمــيهم من ذلك ، ويصاحبــهم حيثمــا حلوا وأينما ارتحلوا ، ولكن

---

(١) فتوح مصر / ٦٢ .

المسجد يعتبر وسيلة من وسائل الضمانات التي تساعد على الالتزام بمكارم الأخلاق .

كما نستفيد من هذا الخبر وصفًا لحياة عمر رضي الله عنه وهو خليفة المسلمين ، حيث يقول لمعاوية بن خديج ، لئن نمتُ النهار لأضيعنَّ الرعية ، ولئن نمت الليل لأضيعنَّ نفسي ، فكيف بالنوم مع هذين يامعاوية .

وهذا يدل على كمال اليقظة لحق النفس وحقوق الآخرين ، وإذا استطاع المسلم أن يجمع بين مراعاة ذلك كله فإنه يكون من المتقين المحسنين .

فالليل فرصة عظيمة للعمل الصالح ، فإن كثرة الصلاة تزيد من الحسنات ، وترفع رصيد المؤمن عند ربه تعالى يوم القيامة، كما أنها تُقَوِّي قلبه على تحمل الشدائد والمشكلات التي يواجهها مع الناس في النهار ، فلابد لكل مسلم ، وخاصة مَنْ يتحمل مسئوليةً في أمته أن يتزوَّد بالصلاة ، وكلما كان زاده منها أكبر كان احتماله لمواجهة الناس أقوى ، ولذلك قرن الله سبحانه بين أمر نبيه ﷺ بقيام الليل والإخبار بضخامة المسئولية المنوطة به حيث يقول تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً** ﴾ (١) .

والنهار فرصة للعمل الصالح من ناحية أداء المسئولية التي تحملها المسلم نحو إخوانه المسلمين ، بأن يؤدي حقوقهم كاملة ، وكلما زادت

---

(١) سورة المزمل /١- ٥ .

حساسية المسلم نحو شعوره بالمسئولية فإنه يضاعف من عمله ، حتى لا يستطيع أن يجد إلى الراحة سبيلا .

وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يشير بقوله هذا إلى هذه المعاني وغير ذلك مما يدركه بحسه الإيماني القوي، ولاشك أنه قد بلغ الدرجات العُلَى في مراعاة المسئولية وأداء حقوق الناس .

هذا وفي هذا الخبر وما سبقه ما يفيد بأن الإسكندرية فتحت عنوة، ولكن جاء في روايات أخرى مايفيد بأنها فتحت صلحًا، من ذلك ماجاء في رواية أخرجها الإمام الطبري من طريق محمد بن إسحاق عن زياد بن جزْء الزبيدي - وكان في جند عمرو بن العاص - وقد جاء في هذه الرواية أن صاحب الإسكندرية عرض على عمرو أن يدفع إليه الجزية في مقابل أن يرد عليه ما أصاب المسلمون من سبايا أرضه، ، وأن عمرًا راسل في ذلك أمير المؤمنين وأن عمر أجابه بقوله: أما بعد فإنه جاء في كتابك تذكر أن صاحب الإسكندرية عرض أن يعطيك الجزية على أن تردَّ عليه ما أصيب من سبايا أرضه، ولعمري لجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليَّ من فئ يقسم، ثم كأنه لم يكن ، فاعرض على صاحب الإسكندرية أن يعطيك الجزية على أن تخيِّروا من في أيديكم من سبيهم بين الإسلام وبين دين قومه فمن اختار منهم الإسلام فهو من المسلمين ، له مالهم وعليه ماعليهم ، ومن اختار دين قومه وُضع عليه من الجزية مايوضع على أهل بيته ، فأما من تفرق من سبيهم بأرض العرب فبلغ مكة والمدينة واليمن فإنا لانقدر على ردِّهم ولانحب أن نصالحه على أمر لانفي له به .

قال : فبعث عمرو إلى صاحب الإسكندرية يعلمه الذي كتب به أمير المؤمنين، قــال : فقال : قد فعلتُ ، قال : فجــمعنا مافي أيدينا من السبايا واجتمـعت النصارى ، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيِّره بين الإسلام والنصرانية ، فإذا اختار الإسلام كبَّرنا تكبيرة هي أشد من تكبـيرنا حين تُفْـتَح القرية، قال: ثـم نحوزه إلينا، وإذا اختــار النصرانيــة نَخَرت النصــارى ثم حازوه إليــهم، ووضعنا عــليه الجــزية، وجزعنا من ذلك جـزعًا شـديدًا حـتى كأنه رجل منا خـرج إليهم، قال : فكان ذلك الدَّأْب حتى فرغنا منهم .

وقد أُتِي فيمن أتينا به بأبي مريم عــبد الله بن عبد الرحمن - قال القاسم : وقد أدركــته وهو عريف بني زبيد - قال : فوقــفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمــه في النصارى - فاختار الإسلام فَحُـزْناه إلينا - ووثب عليه أبوه وأمه وإخــوته يجاذبوننا حتى شقــقوا عليه ثيابه ، ثم هو اليوم عريفنا كما ترى (١) .

وإن هذا يعتبر شاهد صدق على مــاكان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العزوف عن الدنيا والإقبال على الآخــرة ، والرغبة الصادقة في هداية العــالمين إلى الإســلام ، فــإن دخول الأســرى في الإســلام لايفيــد المسلمين شيئًا من الدنيــا . وبقاؤهم على دينهم يتضــمن فائدة دنيوية لهم حيث يُلزَمون بدفع الجزية للمسلمين ، ومع ذلك نجد عمر رضي الله عنه يأمر بتخيير الأسرى بين الإسلام أو دفع الجزية .

وحينــما تم تطبيق ذلــك كان الصحــابة ومن معــهم من المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ١٠٥ .

يكبِّرون تكبيرًا أشد من تكبير الفتح حينما يختار أولئك النصارى دين الإسلام، ويجزعون جزعًا شديدًا حينما يختارون البقاء على دينهم، حتى كأن أولئك الأسرى من ضمن جماعة المسلمين وخرجوا عن دين الإسلام .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن بقاء الكفار على دينهم ورضاهم بدفع الجزية كان هو الخيار الاضطراري عند المسلمين، وأنهم كانوا يفضلون عليه دخول الكفار في الإسلام ويتحمسون لذلك .

وكونهم يجزعون حينما يختار الأسرى البقاء على دينهم مع دفع الجزية دليل على أن المسلمين كانوا يفهمون جيدًا أن استرقاق هؤلاء السبي لايعني إذلالهم ولااستخدامهم ، وإنما يعني تهيئة الجو الملائم لهم ليتفهموا الإسلام حيث يعيشون فترة من الزمن في بيوت المسلمين، فيشاهدون صلواتهم وأخلاقهم العالية ، مع مايؤملون من عتقهم إذا أسلموا فيكون مجموع ذلك دافعًا لهم إلى الدخول في الإسلام .

وتعبير الراوي عن مشهد اختيار أولئك لدينهم بقوله « وجزعنا من ذلك جزعًا شديدًا حتى كأنه رجل خرج منا إليهم » دليل على أن أولئك المؤمنين المتقين قد قطعوا مراحل في محاولة إدخال أولئك النصارى في الإسلام ، فكأنهم انتُزِعوا منهم وقد أوشكوا على بلوغ مقاصدهم من دعوتهم .

وكون بعضهم قد اختار الإسلام دليل على سرعة تأثير أولئك المسلمين في اجتذاب الكفار إلى الإسلام ، حيث لم يمض إلا وقت قليل بين أسْرهم ودخولهم في الإسلام .

وإننا لنستطيع أن نـعرف اتصاف الصحـابة رضي الله عنهم بخلق الوفـاء من قول عـمر رضي الله عنه في كـتابه « فـأما من تفـرق من سَبـيهم بأرض العـرب ، فبلغ مكة والمدينة والـيمن فإنا لانقـدر على ردهم ، ولانحب أن نصالحه على أمر لانـفي له به » فعمر رضي الله عنه ينظر إلى الوفـاء بالعـهـد قبـل إبرام الاتفاق مع الأعـداء، حـتى لايكون المسلمون في وضع لايستطيعون فيه الوفاء ، وهذا الخلق يعتبر مرحلة عاليـة في الوفاء ، لأن من يبرم اتفاقيـة على أمر ثم لايستطيع الوفاء به يكون معذورًا ، ولكن حينما يفكر بعمل الاحتياطات اللازمة لموضوع الوفاء بالعـهد حتى لايجد نفسه بعد ذلـك عاجزًا عن الوفاء، فهذا نهاية التدبير ، وغاية النظر الثاقب .

وما جاء في هذه الرواية من ذكر أبي مـريم بن عبد الرحمن الذي كان نصرانيًا فـأسلم ، ثم رفعه إسلامه بعد ذلك إلـى أن أصبح عريفًا على قبـيلة بني زبيد العربـية، يدل دلالة واضحـة على تجرد المسلمين آنذاك من العصبية ، وأن مقـياس الكرامة في الإسلام الذي شرعه الله تعالى بقوله ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ [1] كان مطبقا في عصور الإسلام الزاهرة .

وهذا الخبر يفيد بأن الإسكندرية فتحت صلحا ، والجمع بينه وبين النصوص المتقدمة التي تفيد بأنـها فتحت عنوة أن نتائج الحروب كانت لصالح المسلمين ، وأن رواة المسلمين سمَّوا النصر الأخير فتحًا ، وأنه لما رأى ذلك صاحب الإسكندرية وأدرك أن بلاده ستفتح عرض الصلح

---

(١) سورة الحجرات / ١٣ .

المذكور ، فتسامح معه المسلمون وقبلوا ذلك ، لأن المفترض أن يكون الصلح قبل القتال ، وقد مر علينا سابقًا في فتح مصر أن عمرو بن العاص قبل الصلح بعد القتال ، وأن بعض الصحابة عارضوه في ذلك ولكن أقره على ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين .

هذا وبفتح الإسكندرية تم فتح جميع البلاد المصرية ، وكانت آنذاك أبرز بلادها .

وإن الذي يتأمل في فتح مصر يجد المسلمين عاملوا أهل تلك البلاد بالرفق واللين أكثر مما عاملوا غيرهم ، وقد تقدم أن النبي ﷺ أخبرهم بفتح مصر وأوصاهم بأهلها خيرًا وذكر أن لهم ذمة ورحمًا ، ولاشك أن الصحابة كانوا يلاحظون ذلك .

هذا إضافة إلى أن أهل البلاد من الأقباط كانوا يميلون إلى المسلمين ، ويرون فيهم سببًا للخلاص من عسف الروم وجبروتهم ، ولذلك لم يكن في مصر بعد الفتح مشكلات انتقاض وقلاقل ، وكان عمرو بن العاص يكرم كبراءهم ويهتم بهم كما جاء في بعض الروايات .

ولما انتهى عمرو من فتح الإسكندرية استأذن أمير المؤمنين عمر في أن يجعل منها دار الإمارة لتوفر المباني بها ، ولكن عمر أبى عليه ذلك ، وأمره أن يجعل دار الإمارة دون نهر النيل حتى لايحول بينه وبين دار الخلافة نهر ولا بحر ، فانتقل إلى مكان إقامته حينما كان محاصرًا حصن باب اليون ، وابتدأ بإنشاء مدينة الفسطاط التي سمِّيت بذلك من فسطاط عمرو الذي تركه من أجل الحمامة التي فرخت فيه .

موقفان لأمير المؤمنين عمر :

جاء في رواية لابن عبد الحكم : وبنى عمرو بن العاص المسجد، وكان ماحوله حدائق وأعنابًا ، فنصبوا الحبال حتى استقام لهم ، ووضعوا أيديهم فلم يزل عمرو قائمًا حتى وضعوا القبلة ، وإن عَمْرًا وأصحاب رسول الله ﷺ وضعوها ،واتخذ فيه منبراً .

فكتب إليه عمر بن الخطاب: أما بعد فإنه بلغني أنك اتخذت منبرًا ترقى به على رقاب المسلمين، أَوَمَا بَحسْبك أن تقوم قائمًا والمسلمون تحت عقبيك ، فعزمت عليك لما كسرته [1] .

هذا ولعل المنبر الذي صُنع لعمرو كان عاليًا ، فلفت نظر عمر حينما بلغه ذلك فخشى أن يُداخل من صعده شيء من الكبر، أو يقع في قلوب بعض المستمعين شيء من اتهامه بذلك ، وإلا فإن المنبر قد صُنع لرسول الله ﷺ ، ولكن لم يكن عاليًا ، إذ كان ثلاث درجات فقط .

وفي هذا دلالة على اهتمام عمر رضي الله عنه بمشاعر المسلمين وحقوقهم،وهذا مثل من أمثلة محاولاته الدائمة لإزالة الفجوات والفوارق بين الحكام والمحكومين،لئلا يطغى حاكم فينخدع بمظاهر التعظيم والرفعة،فيحتجب عنه أهل العقول الكبيرة والإيمان القوي، ويحاول التقرب إليه والهيمنة عليه أصحاب العقول الصغيرة والإيمان الضعيف،ولئلا يضعف محكوم فينزوي عن طلب الحق والدفاع عنه.

وإذا كان عمر رضي الله عنه يأخذ ولاته بهذه الملاحظات الدقيقة

(١) فتوح مصر / ٦٨ .

مع أنه يتحرَّى أشد التحري في اختيارهم ومع كون أغلبهم من الصحابة ، فكيف بمن هم دونهم في العقل والدين بمراحل ؟

إن الملاحظة الدائمة للعلاقة بين الحكام والرعية تعتبر من أهم دعائم قوة الدولة الإسلامية ، وسرعة انتشارها في العهد النبوي وعهد الخلفاء الراشدين .

ولقد عرفنا من هذه الملاحظات والتحريات أن مهمة الحاكم لاتنتهي باجتهاده في اختيار الولاة الأكفاء ، بل تمتدُّ إلى المتابعة وإبداء الملاحظات النافعة .

وإذا كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه قد أخذ ولاته بذلك وحاسبهم حتى على الأمور التي لم يخطر ببالهم أثرها على الأمة، فإنه قد أخذ نفسه بذلك قبل أن يأخذ غيره، فحينما بعث إليه عمرو ابن العاص رضي الله عنه بقوله له : إنا قد اختططنا لك دارًا عند المسجد الجامع ، فكتب عمر : أنَّى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر، وأمره أن يجعلها سوقًا للمسلمين (١) .

وهذا دليل على كمال ورع أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وزهده في مظاهر الحياة الدنيا ، وإذا كان الكبار والزعماء هم الذين يترفَّعون عن أوحال الدنيا ، ومتاعها الزائل، فإن من دونهم من باب أولى أن يترفعوا عن ذلك .

* * *

---

(١) فتوح مصر / ٦٩ .

مواقف وعبر

فى خلافة

عثمان بن عفان رضى الله عنه

- استشهاد عمر واستخلاف عثمان رضي الله عنهما -

أخرج أبو زيد عمر بن شبة النميري بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن عـمر كان دخل بأبي لؤلؤة البيت ليـصلح ضَبَّة له ، وكان نجـاراً نقاشًـا يصنع الأرحاء ، فقـال أبو لؤلؤة : مُرْ سـيدي المغيرة بن شعبة يضع عني خراجي . فـقال : إنك لتكسب كسبًا كبيرًا فـاصـبـر واتق الله ، هل أنت صـانع لـي رحًى ؟ قـال : نعم والله لأَصنعن لك رحًى تتحدث بها العـرب . فقال عمر رضي الله عنه : أوعدني الخبيث ، وخرج إلينا فقـال لو قتلت أحدًا بسوء الظن لقتلت هذا العلج ، إنه نظر إليّ نـظرة لم أشكّ أنه أراد قتلـي فَقَلَّ مـامكث حتى طعنه (١) .

في هذا الخبـر بيان للسـبب الظاهري لإقدام أبي لـؤلؤة المجوسي على قتل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

وفيه مثل من ورع عمـر الشديد حيث لم يقتل ذلك الرجل الذي توعده مع أنه كافر ، بل إنه لم يسجـنه ولم يخرجه من المدينة ، وفيه أيضًا دلالة على قـوة توكل عمر وإيمـانه بقضاء الله تعـالى وقدره وأن جميع الأمور بيد الله سبحانه .

وأخرج الإمام البخاري خبر استشهاده من حديث عمرو بن ميمون قال في سيـاق حديثه : إني لقائم مابيني وبينه أحـد - يعني عمر في صلاة الفـجر - غداة أصيب وكـان إذا مرَّ بين الصفين قال : اسـتووا حتـى إذا لم ير فيـهم خللا تقدم فكبَّـر ، وربما قرأ سـورة يوسف أو

---

(١) تاريخ المدينة المنورة ٣/ ٨٩٣ .

النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فماهو إلا أن كبَّر فسمعته يقول : قتلني - أو أكلني الكلب وذلك حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين ، لايمر على أحد يمينًا ولاشمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم سبعة ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف فقدمه، فمن يلي عمر فقد رأى الذي أرى ، وأما نواحي المسجد فإنهم لايدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة ، فلما انصرفوا قال : ياابن عباس انظر من قتلني ، فجال ساعة ثم جاء فقال : غلام المغيرة ، قال : الصَّنَع ؟ - يعني الذي يصنع بيديه - قال : نعم ، قال : قاتله الله لقد أمرت به معروفًا، الحمد لله الذي لم يجعل ميتتي بيد رجل يدعي الإسلام .

إلى أن قال : وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك من صحبة رسول الله ﷺ ، وقَدَمٍ في الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، قال : وددت أن ذلك كفاف لا عليّ ولا لي ، فلما أدبر إذا إزاره يمس الأرض ، قال : ردوا عليَّ الغلام ، قال :ياابن أخي ارفع ثوبك فإنه أبقى لثوبك وأتقى لربك(١) .

وقوله « وددت أن ذلك كفاف لا علي ولا لي » مثل لآثار الخوف من الله تعالى بتخيُّل الوقوع في شيء من التقصير في أمر المسئولية

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٧/ ٥٩) .

فيود لو أن أجـر الولاية قوبل بما يحتمل أن يكون وقع فيه من تـقصير فيخرج منها كفافًا لا له ولا عليه .

وإذا كان عـمر يشعر بهـذا الشعور وهو الذي ضُـرب بعدله المثل وشهد له رسول الله ﷺ بالجنة فكيف بمن هم دونه في العدل بمراحل ولم يظفروا بمثل هذه الشهادة من الصادق المصدوق ﷺ .

وإنه لعجب من عـمر وهو في تلك الساعـات العصيبـة أن يبدي النصيحة ويغيِّر المنكر الذي رأى ذلك الشاب متلبسًا به ،فقد وعظه في إطالة ثوبه بأسلوب مؤثر جمع فيه بين الفائدة الدينية والدنيوية ، حيث بين أن تقصير الثوب طاعة لله تعالى يسلك بها صاحبها سبيل المتقين، وحفظ لـلثوب من الفناء ، حـيث إن ملامـسة الثوب للأرض تـدنسه وتعجل في بِلاه .

ثم قال عمر كما جاء في رواية البخاري المذكوره : ياعبد الله بن عمر انظر ما عليَّ من الـدَّيْن ، فحسبوه فوجدوه سـتة وثمانين ألفًا أو نحوه، قال : إن وفى له مال آل عمر فأدِّه من أموالهم، وإلا فسَلْ في بني عدي بن كعب ، فإن لم تَفِ أمـوالهم فسل في قريش ولاتَعْدُهم إلى غيرهم فأدِّ عني هذا المال .

وهذا مثل من ورع عـمر رضي الله عنه وتقـواه فهـو الذي يقوم على رأس أعظم دولة في العـالم ، وقـد جُبِيَتْ إليه خـزائن الأرض ومغانم الفتوح العظيـمة ، ومع ذلك يموت مَدينًا، ويأبى أن يُسدَّد دينه من بيت مال المسلمين ، وإنما يأمـر ابنه عبد الله بأدائه من مـال أسرته فإن لم يف بذلك فليعرض القضية على عشيرته ثم على قبيلته .

وإنما تورع عمر عن أداء ذلك الدين من بيت مال المسلمين لأن فيه حقا لكل مسلم فلابد أن يأذن له في ذلك جميع المسلمين ، ومن الذي يضمن له أن جميع المسلمين راضون عن ذلك ؟ وهو لايريد أن يفارق الدنيا وقد تحمل في ذمته شيئًا من أموال المسلمين بغير رضاهم.

أما قرابته وقبيلته فهو يضمن أنهم لن يبذلوا إلا عن رضىً منهم فليس في الأمر شبهة .

وقد امتدت خلافته رضي الله عنه من العام الثالث عشر إلى نهاية العام الثالث والعشرين ، وكان عهده على طوله نسبيا عهد عمل وإنتاج متواصل، سواء في المجال الحربي أو المجال العمراني، فلقد اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في عهده حتى شملت العراق وبلاد فارس والشام ومصر ، وبهذا يكون المسلمون في عهده قد ضموا مملكة الفرس بجميع أطرافها إلى دولة الإسلام ، وهي الإمبراطورية الكبرى التي كانت تسيطر على المشرق ، كما ضموا أهم أقاليم دولة الروم وهما الشام ومصر ، وذلك بعد خوض عشرات المعارك التي كان النصر فيها حليف المسلمين إلا في القليل النادر .

وفي خلال هذه السنوات العشر الحافلة بالأعمال الجليلة كان الأعداء يبذلون كل ما يستطيعون من جهد لتدمير هذه الدولة الفتية التي أخذت تتسع بشكل لم يسبق له مثيل ، فلقد وجهت الدولتان العُظميان آنذاك كل طاقتهما القتالية لصد المسلمين فلم يفلحوا ، واتفقوا في عام واحد وهو العام الخامس عشر على حشد جميع مالديهم من جنود ليواجهوا المسلمين في وقت واحد ، فكانت معركة

القادسية واليرموك ، حيث شُغِل المسلمون بالإعداد لمواجهة تجمع الفرس الكبير لعدة أشهر ، ففاجأهم الروم بالحشود العظيمة السريعة التي التقت مع المسلمين في الشام في معركة اليرموك ثم كانت القادسية بعد ذلك .

ولقد جرت محاولات بعد ذلك من الفرس لحشد ما تبقَّى من قوتهم في مواجهة شاملة مع المسلمين ، وكان آخر الحشود الضخمة في نهاوند حيث قَضى عليها المسلمون .

خبر الشورى بين أهل الحل والعقد :

إن من أهم مواقف عمر رضي الله عنه التي ختم بها حياته ماقام به من تثبيت مبدإ الشورى بين أهل الحل والعقد ، وقد جاء في الرواية التي أخرجها الإمام البخاري من حديث عمرو بن ميمون : «فقالوا أَوْصِ ياأمير المؤمنين ، استخلف ، فقال : ماأجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، فسمَّى عليًّا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن ، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء[١] .

وهكذا جعل الخلافة شورى بين أفضل الأمة دينًا وهم الستة الذين شهد لهم رسول الله ﷺ بالجنة ، ولم يُدخل معهم سعيد بن زيد مع أنه سابع السبعة الذين بقوا من العشرة المبشرين بالجنة بعد أبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم . . لم يدخله معهم في هذا الأمر لأنه ابن عمه وزوج أخته ، وذلك مبالغة منه في الورع

---

(١) صحيح البخاري ، رقم ٣٧٠٠ (٧/ ٥٩) .

وإبعاد صلة القرابة من أن يكون لها تأثير في اختيار الخليفة ، وهذا من كمال عدله وورعه وبُعده عن شرف الدنيا وجاهها .

ولاشك أن عمر قد لاحظ في كل واحد من هؤلاء الستة الكفاءة للقيام بهذا الأمر ، لأن الأفضلية في الدين وحدها لاتكفي لحمل مسئولية الأمة .

هذا وقد أحاط عمر رضي الله عنه أمر هذه الشورى بنظام يحمي هذا الأمر من التفلت والفوضى ، فمن ذلك أنه حصر الشورى في هذا العدد المحدود ، وذلك أضمن لنجاح هذا الأمر ، بخلاف ما لو جُعلت لعموم الأمة فإنه سيدخل في حق الاختيار ضعفاء الإيمان من أصحاب الهوى ، وربما دخل المنافقون ، وإذا كان الرأي للأكثرية فربما يتغلب أصحاب الدنيا على أصحاب الآخرة فيحل الفساد في الأرض .

كما أنه حصر المدة التي يتم فيها اختيار الخليفة بثلاثة أيام وذلك أحزم للأمر وأبعد من حدوث تدخُّل من بعض أصحاب الدنيا قد يحدث بسببه فتنة بين المسلمين .

وحيث إنه قد جَعل الرأي للأغلبية من أهل الشورى فإنه أدخل معهم ابنه عبد الله ليكون مرجحًا لأحد الفريقين عند التساوي وفي حال عدم رضاهم بحكمه يكون الترجيح للفريق الذين معهم عبد الرحمن بن عوف كما جاء في رواية المدائني أن عمر قال لهم « إذا اجتمع ثلاثة على رأي وثلاثة على رأي فحكِّموا عبد الله بن عمر ، فإن لم ترضوا بحكمه فقدموا من معه عبد الرحمن بن عوف » [1] .

---

(١) فتح الباري ٧/ ٦٧ .

وهذا صريح في أن إدخال عبد الله بن عمر معهم للترجيح عند تساوي الأصوات، وإنما اختاره أمير المؤمنين عمر لهذه المهمة لما عُرف عنه من الزهد في الدنيا والتجرد الكامل لله تعالى ، وربما لأسباب أخرى يدركها عمر ويعلم أن في وجوده مايساعد على نجاح الأمر، كما أن ترجيح الجانب الذي فيه عبد الرحمن بن عوف قد لاحظ فيه عمر ما يتصف به من الزهد في مناصب الدنيا والتجرد للآخرة .

أما أمر الشورى في اختيار الخليفة فإن الستة المذكورين اجتمعوا بعد الفراغ من دفن عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقد جرت مواقف من الإيثار والرأي السديد تُسجَّل لهؤلاء العظماء .

فمن ذلك أنهم لما اجتمعوا تحدث عبد الرحمن بن عوف فقال كما جاء في رواية الإمام البخاري السابقة : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير : قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة : قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد : قد جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن : أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ، واللهُ عليه والإسلام لينظرنَّ أفضلهم في نفسه ؟ فأُسكت الشيخان فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إليّ واللهُ عليَّ أن لا آلُوَ عَن أفضلكم ؟ قالا : نعم ، فأخذ بيد أحدهما فقال : لك قرابة من رسول الله ﷺ والْقَدَم في الإسلام ماقد علمت فاللهُ عليك لئن أمَّرتك لتعدلنَّ، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال مثل ذلك ، فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يدك ياعثمان، فبايعه، فبايع له عليّ وولج أهل الدار فبايعوه [1] .

---

(١) صحيح البخاري رقم ٣٧٠٠ (٧/ ٦١) .

وهذه الرواية فـيـها اخـتـصار شـديد حـيث لم تذكـر ماقـام به عبدالرحـمن بن عوف خلال الأيام الثلاثة، وقـد جاء في رواية أخرى للبخاري الإشـارة إلى ذلك ، وفيها قول المسور بن مـخرمة : « حتى إذا كانت الليلة التي أصبحنا منها فبايعنا عثمان - قال المسور - طَرَقني عبد الرحمن بعد هَجْعٍ من الليل ، فضرب الباب حتى استيقظت فقال: أراك نائمًا فو الله ما اكتحلْتُ هـذه الثلاث بكثير نوم » ثم أمره بدعوة بعض أهل الشورى .

وجاء في آخر الرواية « فلما صلى الـناس الصبح واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أمراء الأجناد - وكانوا وافوا تلك الحـجة مع عمر - فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن ، ثم قال : أما بعد ياعلي إني قد نظرت في أمـر الناس فلم أرهم يعدلون بـعثـمان، فـلا تجعلن على نفـسك سبـيلا، فقـال - يعني لعثـمان - أبايعك على سنة الله تـعالى وسنة رسوله ﷺ والخليفتين من بعده ، فبـايعه عبد الرحمن وبايعه الناس: المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون [1] .

هذا وإن مـاقام به هؤلاء الـصحـابة الأربعـة رضي الله عنهم من التنازل عن الخلافـة إبتغاء وجه الله تعـالى يعتبر مـوقفًا عظيـمًا، أما تمسك عثمان وعلي رضي الله عنـهما بحقهما في ذلك فهـو محمول على أن كل واحد منهما يريد القيام بهذا العمل الصالح الذي يعتبر من أعلى الأعمال الصـالحة وأشرفها حيث لايأتي من يسـاوي الخليفة في هذا العمل إذا قام بتبعاته وحذر من مغبـاته ، فالخليفة يعتبر هو القائد

---

(١) صحيح البخاري رقم ٧٢٠٧ (١٣/ ١٩٣) .

الأعلى لجميع المجاهدين في دولة الإسلام ، وأي فتح يتم بتوجيهه فله منه حظ ونصيب ، إضافة إلى قيامه بالعدل بين الناس وإثابة المحسن وعقوبة المسيء، وإقرار دولة الإسلام في الأرض .

ولكن مواقف الصالحين تختلف نحو هذا الأمر كما اختلفت مواقف أصحاب الشورى هنا ، فمنهم من يغلّب جانب السلامة من المأثم خشية عدم المقدرة على القيام بكل مطالب الولاية، ومنهم من يغلب جانب الطموح نحو المعالي في الأعمال الصالحة مع رجاء التسديد والتوفيق من الله تعالى .

والذي يدفع أصحاب الصلاح غالبًا إلى قبول الولاية كونهم يحملون في أفكارهم مشاريع خيِّرة نحو الإصلاح وإعزاز الإسلام، ويخشون إن تولاها غيرهم لم يحقق هذه الأماني السامية .

هذا وتجدر الإشارة بشكل خاص بجهود عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، فقد كان رجل الموقف حيث أشار عليهم بأن يجعلوا أمر الشورى لثلاثة منهم ، وذلك بالتنازل عن حقهم في هذا الأمر، وفي ذلك حصر لأمر الخلافة وهو أدعى للنجاح في اختيار الخليفة.

ولما تم التنازل وكان عبد الرحمن بن عوف أحد المرشحين تنازل عنها ليقوم بعملية الاختيار ، وقد قام بها خير قيام ، حيث ظل ثلاثة أيام يأخذ آراء أهل الرأي من المسلمين ، فلما رأى أن أغلبهم يرشح عثمان عزم على أخذ البيعة له ، فبايعه أهل الشورى بغير تردد ولاامتناع ، ثم بايعه وجهاء المسلمين وعامتهم في المدينة رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

– من مواقف عثمان بن عفان رضي الله عنه –

استفتح الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافته بعدة كتب ، فكتب إلى ولاة الأمصار ، وإلى قادة الجنود، وإلى المسئولين عن جباية الأموال، وإلى عامة المسلمين .

كتابه إلى الولاة :

ذكر هذا الكتاب الإمام ابن جرير الطبري فيما يرويه عن شيوخه قالوا : وكان أول كتاب كتبه عثمان إلى عماله :

أما بعد : فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإنَّ صدر هذه الأمة خُلقوا رعاة ، لم يخلقوا جباة، وليوشكنَّ أئمتكم أن يصيروا جباة ولايكونوا رعاة، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم، ثم تُثَنُّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم، ثم العدوَّ الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء [1] .

وفي هذا الكتاب أشار عثمان رضي الله عنه إلى بيان مهمة الولاة الذين يلون أمور المسلمين ، حيث بين أنهم رعاة ، ومهمة الرعاة حفظ رعاياهم والعناية بهم وبذل الجهد في صلاح أمورهم في الدنيا والآخرة ، وليسوا جُباة لأموالهم، بل هم مستأمنون على تلقي موارد الدولة المالية وصرفها بأمانة وعدالة .

ونبه على ماسيكون عند تغير الولاة من رعاة إلى جباة ، بأن ذلك

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥ .

سبب في تقلص مكارم الأخلاق التي مثَّل لها بالحياء والأمانة والوفاء، وذلك أنَّ بين الراعي والرعية خيطًا ساميا من العلاقات المتينة، يؤكده ويثبته اتفاق الجميع على هدف واحد ، وهو ابتغاء وجه الله تعالى، فالوالي يسعى لهذا الهدف بما يقدمه لرعيته من رعاية وعدالة، وأفراد الرعية يسعون لهذا الهدف بمايقدمونه لإمامهم من طاعة وولاء وأمانة ووفاء ، ويبقى خُلُق الحياء الذي أشار إليه عثمان يُظلُّ الجميع فيمنعهم من ارتكاب ما يُستقبح أو التعرض لجرح المشاعر والإيقاع في الحرج.

ثم يوصي عثمان ولاته بالعدل في الرعية ، وذلك بأخذ ماعليهم من الحقوق وبذل مالهم من ذلك ، ويشير إلى نقطة مهمة وهي أن الوفاء بالعهود من أهم أسباب الفتح والنصر على الأعداء ، وقد تقدمت لنا أمثلة تبين أثر هذا الخلق الرفيع في تفوق المسلمين الإداري والحربي .

كتابه إلى قادة الجنود :

قال ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى أمراء الأجناد في الفروج [١] : أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم، وقد وضع لكم عمر ما لم يَغبْ عنا ، بل كان على ملإٍ منا ، ولايبلغْني عن أحد منكم تغيير ولاتبديل فيغيِّر الله مابكم ، ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تكونون فإني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه[٢].

(١) يعني الأقاليم .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

وفي هذا الكتاب لفت نظر إلى أن الأمور لن تتغير بتغير الخليفة، لأن الخلفاء ومن دونهم من الولاة يسيرون على خط واحد ، وهو القيام بمهمة تطبيق الإسلام في واقع الحياة .

وقوله « وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان على ملإ منا» إشارة إلى أن حكم أولئك الخلفاء يقوم على الشورى ، وذلك يترتب عليه أن جميع القضايا المهمة تكون معلومة بتفاصيلها عند أهل الحل والعقد، فإذا ذهب الحاكم وخلفه حاكم آخر سار على نفس المنهج لوضوح الهدف لدى الجميع .

وقوله « ولاتغيروا فيغير الله بكم » وَعْيٌ لسنن الله تعالى في هذا الكون، فمعية الله جل وعلا لأوليائه بالتوفيق والحماية والنصر مشروطة بلزومهم شريعته واستسلامهم لأمره، فإذا تغيروا في ذلك غيَّر الله مابهم واستبدل بهم غيرهم في الهيمنة والتمكين، وفي ذلك يقول الله سبحانه ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ** ﴾ (١) .

كتابه إلى الجُبَاة :

قال الإمام ابن جرير : قالوا : وكان أول كتاب كتبه إلى عمال الخراج : أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانةَ الأمانةَ ، قوموا عليها، ولاتكونوا أول من يُسلَبُها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى مااكتسبتم ، والوفاءَ

---

(١) سورة الرعد / ١١ .

الوفاءَ، لاتظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم [1].

ففي هذا الكتاب تذكير بالله تعالى لتكون رقابته هي المهيمنة على النفوس ، فيلتزم من ولاهم الله أمور أموال الأمة بالحق ويستقيموا عليه، فلا يأخذوا الأموال من مصادرها إلا بطريق حلال، وإذا أخذوها قاموا بحفظها بأمانة حتى يؤدوها في وجوهها المشروعة .

ثم يوصيهم بلزوم الأمانة ، ويذكرهم بأنهم إن سُلبوها فإنهم يتحملون مغبة فقدها في الدنيا والآخرة، ويشاركون في المأثم من تأسى بهم في ذلك .

ثم يوصيهم بالوفاء بأداء حقوق اليتامى والمعاهدين، ويذكّرهم بأنهم إذا ظلموهم فإنهم معرضون لنقمة الله تعالى،لأنه خصم لمن ظلم هؤلاء المستضعفين .

وفي هذا لفتة إلى جانب من جوانب عظمة الإسلام حيث يدعو إلى نصر المظلومين وإن كانوا من الكفار المعاهدين .

* * *

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٥ .

مواقف وعبر
في
جهاد المسلمين في المشرق وبلاد الروم

١ - مواقف جهادية في أذربيجان وبلاد الروم -

لقـد ضـاق الأعداء ذرعًـا بالإطاحـة بدولهم وانتـقـاض ممالكهم فأقدمـوا على التخطيط لزعزعة دولة الإسـلام من داخلها، وكان أبرز مظاهر ذلك التخطيط إقـدامهم على قتل أمير المؤمـنين عمر رضي الله عنه لاعـتقادهم بأنـه هو المحرك الأقوى للـجهاد الإسـلامي، والمَعْلَم البارز لتماسك المسلمين في ظلال دولته القوية .

وقد ظهر بعد استشهاده واسـتخلاف عثمان رضي الله عنه مايؤيد ذلك ، حيث بدأت بعـض الأقاليم بالانتقـاض على المسلمين في بلاد الفرس، واستعدت دولة الروم لغزو المسلمين في الشام ومصر .

ومن الأخبار في ذلك ماروواه الإمـام الطبري من أن أهل أذربيجان انتقضوا على المـسلمين ، وأن أمير الكوفة الوليد بن عقـبة سار إليهم حتى وطئـهم بالجيش فلمـا رأوا ذلك انقادوا وطلبوا إلـيه أن يَتمَّ لهم على الصلح الذي كان صالحهم عليه حذيفـة بن اليمان، ففعل وقبض منهم المال ، وكانوا قد حبسوا ذلك عند وفاة عمر (١) .

أما الروم فـإنهم قد أجلبوا على المسلمين بجـموع عظيمـة، وقد كتب أمـير المؤمنين عثمـان رضي الله عنه إلى الوليد بن عقـبة الوالي على الكوفة يقـول له : أما بعد فإن مـعاوية بن أبي سفيـان كتب إليَّ يخبرني أن الروم قد أجلبت على المسلمين بجموع عظيمة، وقد رأيت أن يمدهم إخوانهم من أهل الكوفة ، فإذا أتاك كتابي هذا فابعث رجلاً ممن ترضى نجدته وبأسه وشجاعته وإسلامه ، في ثمانية آلاف أو تسعة

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٧ .

آلاف أو عشرة آلاف إليهم من المكان الذي يأتيك فيه رسولي والسلام.

فقام الوليد في الناس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد أيها الناس فإن الله قد أبلى المسلمين في هذا الوجه بلاء حسنا - يعني في بلاد الفرس والمشرق - ردَّ عليهم بلادهم التي كفرت، وفتح بلاداً لم تكن افتتحت، وردهم سالمين غانمين مأجورين، فالحمد لله رب العالمين ،وقد كتب إليَّ أمير المؤمنين يأمرني أن أندب منكم مابين العشرة آلاف إلى الثمانية آلاف، تمدون إخوانكم من أهل الشام، فإنهم قد جاشت عليهم الروم، وفي ذلك الأجر العظيم المبين، فانتدبوا رحمكم الله مع سلمان بن ربيعة الباهلي، قال :فانتدب الناس فلم يمض ثالثة حتى خرج ثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فمضوا حتى دخلوا مع أهل الشام إلى أرض الروم، وعلى جند أهل الشام حبيب ابن مسلمة بن خالد الفهري، وعلى جند أهل الكوفة سلمان بن ربيعة الباهلي ، فشنُّوا الغارات على أرض الروم، فأصاب الناس ماشاؤوا من سبي ، وملئوا أيديهم من المغنم ، وافتتحوا بها حصونا كثيرة (١) .

وهكذا أثبت أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وولاته وقادة جنوده البواسل أن الدولة الإسلامية ماتزال قوية مرهوبة الجانب، حيث أخضعوا أعداءهم وقضوا على القلاقل التي حدثت في المشرق، ثم اتجهوا نحو الروم فأوقعوا فيهم خسائر جسيمة ، واثبتوا لأعداء الإسلام أن القضاء على قادة المسلمين لايعني شيئا مهما في إضعافهم ولو كان من توجهوا للقضاء عليه إمام المسلمين ، لأن قادة الإسلام

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٧ .

وجنوده يجاهدون من أجل إعلاء كلمة الله تعالى ، وليسوا مجبورين على القتال من حكامهم ، ولو كان المسلمون يتأثرون بفقد إمام أو قائد تأثرًا يشلّ حركة جهادهم لتأثروا قبل ذلك بفقد رسول الله ﷺ.

موقفان لحبيب بن مسلمة وزوجته :

هذا ومن الروائع التي رُويت في جهاد المسلمين مع الروم ماذكره الإمام الطبري من خبر قائد المسلمين حبيب بن مسلمة الفهري، وقد جاء في الخبر « وكان حبيب صاحب كيد ، فأجمع على أن يبيِّت المَوْريان » - يعني قائد الروم - فسمعَتْه امرأته أم عبيد الله بنت يزيد الكلبية يذكر ذلك ، فقالت له : فأين موعدك؟ قال : سرادق الموريان أو الجنة ، ثم بيَّتهم فقتل من أشرف له،وأتى السرادق فوجد امرأته قد سبَقَتْ،وكانت أول امرأة من العرب ضرب عليها سرادق،ومات عنها حبيب ، فخلف عليها الضحاك بن قيس الفهري فهي أم ولده[1] .

وقد عبَّر حبيب عن النصر على الأعداء بالوصول إلى سرادق«الموريان» باعتبار أن الوصول إلى مقر القائد يعني هزيمة الأعداء، وقد جعل لزوجته موعدا في الدنيا إن انتصروا على الأعداء، وهو اللقاء في مقر قيادة جيش الأعداء ، وجعل لها موعدًا في الآخرة إن ظفر بالشهادة ، وهو اللقاء في الجنة .

وهذا دليل واضح على أن من صفات الجيل الأول أنهم يجعلون هدفهم إحدى الحسنيين : إما النصر على الأعداء ، أو الظفر بالشهادة .

---

(١) تاريخ الطبري ٤/٢٤٨ .

وما قام به حبيب بن مسلمة دليل على براعته في التخطيط، حيث فاجأ الأعداء بذلك الهجوم الليلي المباغت ، وهو مثل على تفوق المسلمين الحربي ، ولم يكن الأعداء على مستوى المسلمين في الحذر والرصد الحربي ، فلذلك وقع الروم في الفشل وانهزموا .

أما امرأة حبيب فإنها كانت مثالا للمرأة المؤمنة الشاعرة بمسئوليتها أمام زوجها وأمام واجبها نحو أمتها ، فقد كانت مشاركة لزوجها في مشاعره وأفكاره وتخطيطه في أهم عمل يقوم به في حياته، وهو جهاد الأعداء .

ولاشك أن سؤالها عن موعد اللقاء ، وجواب حبيب لها يدل على مشاركة سابقة في تصور طموحاته ومراحل عمله .

وإذا كانت المرأة ذات كفاءة ، وشاركت زوجها في المشورة والتشجيع والمؤازرة فإن إنتاج زوجها يكون مضاعفًا لأنه سيعيش في نطاق عمله ليل نهار .

وإذا كانت المرأة وهي التي تتصف عادة باللين وإيثار السلامة والبعد عن المخاطر . . إذا كانت هي التي تدفع بزوجها - كهذه المرأة- إلى اقتحام الأهوال والدخول في المغامرات ، فإنها امرأة عظيمة حقا، ولاشك أن زوجها سيكون مندفعًا لذلك بطاقته المعتادة مضافًا إليها مايناله من تأييد وتشجيع من الجانب الذي يُنتظر منه ضد ذلك .

ولقد كانت هذه المرأة عظيمة أيضًا حينما لم تكتف بتشجيع زوجها ودفعه إلى بذل كل مايملك من جهد في قتال الأعداء، بل غامرت بنفسها حتى سبقت زوجها إلى سرادق قائد الروم .

٢ – فتح بعض بلاد خراسان –

استمرت الفتوحات في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وقد ولّى على البصرة عبد الله بن عامر بن كريز القرشي.

وقد سار ابن عامر سنة إحدى وثلاثين إلى خراسان ففتح أبْرَشهر وطوس وبيورَد ونَسَا ، حتى بلغ سَرَخْس ، وصالح فيها أهل مرو .

ذكر ذلك الإمام الطبري (١) .

ثم ذكر رواية عن السكن بن قتادة العريني أن أهل خراسان جمعوا أربعين ألفا بقيادة « قارن » فسار إليهم عبد الله بن خازم وليس معه إلا أربعة آلاف ، وأمر الناس فحملوا الودك من سمن أو دهن أو زيت أو إهالة [وهي الودك المذاب] ، ثم سار حتى إذا أمسى قدَّم مقدمته ستمائة ، ثم اتَّبعهم ، وأمر الناس فأشعلوا النيران في أطراف الرماح، وجعل يقتبس بعضهم من بعض، وانتهت مقدمته إلى عسكر قارن، فأتوهم نصف الليل ، ولهم حرس فناوشوهم ، وهاج الناس على دَهش، وكانوا آمنين في أنفسهم من البيات ودنا ابن خازم منهم ، فرأوا النيران يمنة ويسرة ، وتتقدم وتتأخر ، وتنخفض وترتفع ، فلايرون أحدًا ، فهالهم ذلك ، ومقدمة ابن خازم يقاتلونهم ، ثم غشيهم ابن خازم بالمسلمين ، فقُتل قارن، وانهزم العدو فاتبعوهم يقتلونهم كيف شاؤوا ، وأصابوا سبيا كثيرًا (٢) .

وهكذا يتحفنا قادة المسلمون الأوائل بالخطط الحربية المتنوعة، مما

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٣٠٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٣١٤ - ٣١٥ .

يدل على أنهم كانوا قد اتخذوا الجهاد من أجل نصرة الإسلام قضيتهم الكبرى ، يعيشون من أجلها ، ويموتون في سبيلها ، فألهمهم الله تعالى الخطط الملائمة للمقام .

ومما يلاحظ أن هذه الخطط النادرة لاتتوفر للمسلمين إلا إذا كانوا في ضائقة من أمرهم ، فيلهمهم الله تعالى إياها إنقاذًا لهم، وإعزازًا لهذا الدين .

ولهذا فإننا نراهم يُقْدمون ويتوغلون في بلاد الأعاجم مع قلة العَدد وضآلة العُدد ، متوكلين على الله جل وعلا ذاكرين معيَّته لأوليائه بالنصر والتأييد ، مع بذل الجهد في الأخذ بالأسباب التي جعلها الله تعالى موصلة إلى غاياتها .

* * *

٣ - معركة في طخارستان -

أخرج الإمام الطبري عن مقاتل بن حيان قال: صالَح ابن عامر[١] أهل مرو وبعث الأحنف [٢] في أربعة آلاف إلى طخارستان فأقبل حتى نزل موضع قصر الأحنف من مرْورُوز ، وجمع له أهل طخارستان وأهل الجوزجان والطالقان والفارياب فكانوا ثلاثة زحوف، ثلاثين ألفا، وأتى الأحنفَ خبرُهم وماجمعوا له فاستشار الناس فاختلفوا، فبين قائل : نرجع إلى مرو ، وقائل : نرجع إلى أَبْرَشهر وقائل : نقيم نستمدّ ، وقائل : نلقاهم فنناجزهم قال : فلما أمسى الأحنف خرج يمشي في العسكر ، ويستمع حديث الناس ، فمر بأهل خباء ورجل يوقد تحت خزيرة أو يعجن ، [والخزيرة طعام يشبه العصيدة] وهم يتحدثون ويذكرون العدو ، فقال بعضهم ، الرأي للأمير أن يسير إذا أصبح حتى يلقى القوم حيث لقيهم فإنه أرعب لهم فيناجزهم، فقال صاحب الخزيرة أو العجين : إن فعل ذلك فقد أخطأ وأخطأتم ، أتأمرونه أن يلقى حدَّ العدو مُصحرًا في بلادهم ، فيلقى جمعًا كثيرًا بعدد قليل ، فإن جالوا جولة اصطلمونا ! ولكن الرأي له أن ينزل بين المَرغاب[٣] والجبل ، فيجعل المرغاب عن يمينه والجبل عن يساره ، فلا يلقاه من عدوه وإن كثروا إلا عدد أصحابه .

فرجع الأحنف وقد اعتقد ماقال، فضرب عسكره وأقام، فأرسل

---

(١) هو والي البصرة عبد الله بن عامر القرشي .

(٢) هو الأحنف بن قيس التميمي .

(٣) المرغاب نهر بمروا الروذ كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان .

إليه أهل مرو يعرضون عليه أن يقاتلوا معه، فقال: إني أكره أن أستنصر بالمشركين فأقيموا على ماأعطيناكم وجعلنا بيننا وبينكم، فإن ظفرنا فنحن على ماجعلنا لكم، وإن ظفروا بنا وقاتلوكم فقاتلوا عن أنفسكم.

قال: فوافق المسلمين صلاةُ العصر، فعاجلهم المشركون فناهضوهم فقاتلوهم، وصبر الفريقان حتى أمسوا.

ثم ذكر في رواية أخرى أنهم استمروا في القتال ليلا حتى ذهب عامة الليل، ثم هزمهم الله [1].

في هذا الخبر نجد الأحنف بن قيس مع ما اشتهر به من الرأي وحصافة التفكير يجمع أهل الرأي فيستشيرهم، وهو بذلك يطبق حكمًا شرعيًا قد أمر الله تعالى به نبيه ﷺ مع أنه معصوم حيث يقول **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾** [2] فمن باب أولى أن يكون هذا الحكم ساريًا على قادة المسلمين وولاتهم.

ومع ذلك نجد الأحنف لايكتفي بتلك الشورى بل يقوم من الليل ويدور على خيام الجند علَّه يسمع رأيًا جديدًا مفيدًا يأخذ به، فقد دلَّته التجارب على أن بعض العامة يُلهمهم الله آراء سديدة، وهذه الآراء تظهر غالبًا عند التحاور وتبادل الرأي، وقد يوصلون الرأي المختار لقائدهم وقد لايفعلون ذلك.

---

(١) تاريخ الطبري ٣١١/٤ - ٣١٢، فتوح البلدان / ٥٧٢.

(٢) ال عمران / ١٥٩.

ونجد الأحنف وهو القائد المحنَّك لاينتظر احتمال وصول هذه الآراء إليه وهو في مركز القيادة بل يحمل نفسه على التجول ليلا علّه يسمع رأيًا مفيدًا يحل مشكلة المسلمين .

والخطة الحربية التي استفدناها من هذا الخبر هي أن الجيش إذا كان عدده قليلا وعدد عدوه كثيرًا عليه أن يلجأ إلى مكان محصور بحيث لايأتيه العدو إلا من جهة واحدة والمختار أن يكون المكان*غير واسع بحيث لايصل إلى الجيش إلا القدر المناسب لعدده .

وهكذا فعل الأحنف فأخذ بهذه الخطة فنجح وانتصر على أعدائه في تلك المعركة .

هذا وقد بعث الأحنف بن قيس طائفة من الفرسان بقيادة الأقرع ابن حابس إلى الجوزجان، إلى بقية كانت بقيت من الزحوف الذين هزمهم الأحنف، فقاتلهم ، فجال المسلمون جولة، فقُتل فرسان من فرسانهم فقال كُثَير النهشلي :

سقى مُزْن السحاب إذا استهلّت

مصارع فتية بالجُوزجان

إلى القصرين من رُستاق خُوطٍ

أقادهمُ هناك الأقرعان (١)

ونحن مع كثير النهشلي فنقول : كم ضمَّت الأرض في مشارقها ومغاربها من شهداء المسلمين الذين عَبَقت الأرض بروائحهم الزكية،

(١) تاريخ الطبري ٤/٣١٢ .

وأصـبحـوا شاهدًا حـيّـا على مدار التـاريخ على عظمـة المسلمين ، واستـعدادهم العـالي للتضـحية بأنفـسهم وأمـوالهم في سبـيل إعزاز دينهم .

إن الدولة الإسلامية التي حكمت أكـثر بلاد العالم عدة قرون إنما بُنيت ونَمَتْ على دمـاء أولئك الشهـداء الأبرار ، وما أنتجـته عـقول أولئك القادة الأخيار .

* * *

مواقف وعبر
في
جهاد المسلمين في المغرب

١- فتح مدينة سبيطلة في أفريقية -

ذكر ابن الأثير أن عثمـان بن عفان رضي الله عنه وَلَّى على مصر وماوراءها من أفريقية عبد الله بن سعد بن أبي السرح .

ثم إن عبد الله بن سعد لما ولِي أرسل إلى عثمان في غزو أفريقية والاستكثار من الجموع عليها وفتحها، فاستشار عثمان من عنده من الصحابة فأشار أكثرهم بذلك، فجهز إليه العساكر من المدينة وفيهم جماعة من أعيان الصحابة منهم عبد الله بن عباس وغيره، فسار بهم عبد الله بن سعد إلى أفريقية ، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين وكانوا بها وساروا إلى طرابلس الغرب فغنموا ممن عندها من الروم ، وسار نحو أفريقية وبث السرايا في كل ناحية وكان ملكهم اسمه جرجير ومُلْكه من طرابلس إلى طنجة .

وكان هرقل ملك الروم قد ولاه أفريقية فهو يحمل إليه الخراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس، والْتقى هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سبيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك فأقاموا هناك يقتتلون كل يوم، وراسله عبد الله بن سعد يدعوه إلى الإسلام أو الجزية فامتنع منهما وتكبر عن قبول أحدهما .

وانقطع خبر المسلمين عن عثمان فسيَّر عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم فسار مُجداً ووصل إليهم وأقام معهم، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين فسأل جرجير عن الخبر فقيل قد أتاهم عسكر ففتَّ ذلك في عضده، ورأى عبد الله بن الزبير

قتـال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهـر فإذا أُذِّن بالظهـر عاد كل فريق إلى خيامـه، وشهد القتال من الغد فلم يَرَ ابـن أبي سرح معهم فسأل عنه فقـيل إنه سمع منادي جرجير يقول : من قـتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي وهو يخاف، فحضر عنده وقال له : تأمر مناديًا ينادي من أتاني برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده، ففـعل ذلك فصار جرجير يخاف أشد من عبد الله .

موقف لعبد الله بن الزبير :

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعـبد الله بن سعد : إنَّ أمرنا يطول مع هؤلاء وهم في أمداد مـتصلة وبلاد هي لهم ونحن مـنقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن نترك غدًا جـماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم مـتأهبين ونقاتل نحن الروم في باقي العسكر إلى أن يضجروا ويملوا فإذا رجعـوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ركب من كان فـي الخيـام من المسلمين ولم يشهـدوا القتـال وهم مستريـحون ونقصدهم على غرة فلعل الله ينصرنا عليهم فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقـوه على ذلك، فلما كان الغد فعل عبد الله ماانفـقوا عليه وأقـام جميعُ شُـجعان المسلمين في خـيامهم وخـيولُهم عندهم مسرجة، ومـضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهـر قتالا شديدًا فلمـا أُذِّن بالظهـر همَّ الروم بالانصـراف على العـادة فلم يمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالـقتال حتى أتعبهم، ثـم عاد عنهم هو والمسلمون فكل الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تَعبًـا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحًا من شجعان المسلمين وقصد الروم فلم يشعروا

بهم حتى خالطوهم وحملوا حملة رجل واحد وكبروا فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون، وقُتل جرجير قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقُتل منهم مقتلة عظيمة وأُخذت ابنة الملك جرجير سبية .

ونازل عبد الله بن سعد المدينة فحصرها حتى فتحها ورأى فيها من الأموال مالم يكن في غيرها فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار ، ولما فتح عبد الله مدينة سبيطلة بث جيوشه في البلاد فبلغت قفصة فسبوا وغنموا وسيَّر عسكرا إلى حصن الأجم، وقد احتمى به أهل تلك البلاد فحصره وفتحه بالأمان فصالحه أهل أفريقية على ألفي ألف وخمسمائة ألف دينار ونفل عبد الله بن الزبير ابنة الملك وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح أفريقية [١] .

هذا ولقد كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما موقفًا عظيمًا في البطولة والشجاعة وقد ذكره الحافظ ابن كثير حيث قال : لما قصد المسلمون وهم عشرون ألفًا أفريقية ، وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وفي جيشه عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير، صمد إليهم ملك البربر جرجير في عشرين ومائة ألف، وقيل في مائتي ألف، فلما تراءى الجمعان أمر جيشه فأحاطوا بالمسلمين هالةً، فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولا أخوف عليهم منه.

قال عبد الله بن الزبير : فنظرت إلى الملك جرجير من وراء الصفوف وهو راكب على برذون ، وجاريتان تظلانه بريش الطواويس

---

(١) الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٥ - ٤٦ .

فذهبت إلى عبد الله بن سعد بن أبي سـرح فسألته أن يبعث معي من يحمي ظهري، وأقصد الملك، فجهز مـعي جماعة من الشجعان قال: فأمـر بهم فَحَمـوا ظهري وذهبت حتـى خرقت الصفـوف إليه، وهم يظنون أني في رسالة إلى المـلك، فلما اقتربـت منه أحس مني الشر، ففـرَّ على برذونه فلحقته فطعـنته برمحي، وذففت - يعني أجـهزت- عليه بسيفي ، وأخذت رأسه فنصـبته على رأس الرمح وكبرت ، فلما رأى ذلك البربر فَرِقُـوا وفرُّوا كَفِرار القطا ، واتبعـهم المسلمون يقتلون ويأسرون فغنموا غنائـم جمة وأموالاً عظيمة ، وسبـيًا عظيمًا، وذلك ببلد يقال له « سبيطله » - على يومين من القيروان - .

قال : فكان هذا أول مـوقف اشتهـر فيه أمـر عبد الـله بن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه وأصحابهما أجمعين [1] .

هذا وإن ماقـام به عبد الله بن الزبير رضـي الله عنهما يعتـبر في غاية الشـجاعـة والجسارة ، حـيث اخترق صـفوف الأعـداء ثم انتزع مَلكهم من بين أيديهم فقتله وهم يشاهدون مشدوهين وقد ملأ الرعب قلوبهم .

ولقـد كان مـاقام به ابـن الزبير نوعًـا من الطمـوح نحو المعـالي المحفـوفة بالأهوال، بدون تدرج سـابق، لقد كان عـمره آنذاك سبـعًا وعـشـرين سنة ، ولم يُذكـر له قـبل ذلك مـواقف بطوليـة من نوع المغامرات، فكيف أقدم على هذه المغامرة الهائلة التي يغلب على الظن أو يكاد يقرب من اليقين في عرف الناس العاديين أن فيها الهلاك ؟

---

(١) البداية والنهاية ٧/ ١٥٨ .

إن الاحتمالات التي يمكن أن تَرد في مثل هذه المغامرة أن يدور في خَلَد المغامر أمران :

١ - أن ينجح في هجومه فيقضي على ملك البربر، ويتفرق جنده كما هي عادة الكفار ، وفي ذلك نصر مؤزر للمسلمين، وكفاية لهم عن خوض معركة شرسة قد تخوَّف منها المسلمون .

٢ - أن يتقبله الله شهيدًا ، وفي ذلك الوصول إلى أسمى الأماني، وأبلغ الدرجات التي يطمح إليها الصالحون ويتنافسون على بلوغها، كما أن في ذلك من إرهاب الكفار وإثارة الرعب فيهم الشيء الكثير، حيث سيتوقع الكفار أن المسلمين الذين سيقاتلونهم كلهم من هذا النوع الجريء الفتاك، إذ أنه يكفي المغامر شجاعة أن يقذف بنفسه في أُتون المعركة الملتهب .

إنه لايُقدم على هذه الوثبة العالية إلا العظماء الذين يتصورون الجنة من وراء تلك الوثبة ، فيتخيلون أنهم يَثبون إليها .

ولقد كان ابن الزبير وهو يَثب تلك الوثبة متجردًا من علائق الدنيا وأثقالها المثبطة طامحًا بتصوراته إلى ما أعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله على قدر طاقتهم سواء انتصروا على أعدائهم أو نالوا الشهادة.

وليس غريبًا من ابن الزبير رضي الله عنه وعن أبيه ذلك الإقدام النادر فإن الشبل من ذاك الأسد ، ولقد سبق لنا عرض شيء من مغامرات أبيه العظيمة ، ومنها هجومه على الأعداء وحده من فوق حصن باب اليون في فتوح مصر ، واختراقه صفوف الروم يوم اليرموك وحده ذهابًا وإيابًا .

وقد جاء في هذا الخبر أن البربر بعدما قُتل ملكهم فروا من جيش المسلمين كفـرار القطا ، وأن المسلمين تبعوهم يقـتلون ويأسرون منهم من غير مـقاومة ، وإن هذا الخبر دليل على أن اللـه تعالى مع أوليائه المؤمنين ، وأنه يقـيِّض لهم إذا صـدقـوا مايخلصـهم من الشـدائد ، وينقذهم من المآزق ، فإن المسلمـين قد وقعوا في معضلة كـبرى حيث أحاط بهم أعـداؤهم الذين يفوقـونهم ست مرات في العدد أو أكـثر ، وكان على المسلمين أن يقاتلوهم من كل جانب ، وهـو أمر عسير على جيش صغيـر بالنسبة لكثرة عدوه ، كمـا جاء في قول الراوي« فوقف المسلمون في موقف لم يُرَ أشنع منه ولاأخوف عليهم منه» فقيض الله لهم هذا البطل المغوار الذي أقـدم على مغامرة نادرة المثـال ، فأنقذ الله به ذلك الجيش الإسلامي من عسرة كان يعاني منها .

ولاننسى موقف الأبطال الذين كانوا مع عبد الله بن الزبير يحمون ظهره ، فإنهم قد شاركـوه في تلك المخاطرة ، ولئن لم يَذْكر التاريخ أسماءهم فإن عملهم الفـدائي قد بقي مخلَّدًا في الدنيا برفع ذكر هذه الأمـة حينمـا تفـاخر بأبـطالها ، وفي الآخـرة بما ينتظرون من جـزاء الإحسان بالإحسان .

أما مـا جاء مما ظاهره الاختـلاف بين رواية ابن الأثير ورواية ابن كثير فهو محمول على أن كل واحـد منهما نقل مشهدا أو مشاهد من المعركة ، فـابن الأثير حاول استـقصاء وصف المعركـة من أولها وابن كثـير اكتـفى بعرض موقف عـبد الله بن الزبيـر لما فيه من الأهمـية ، وهجوم ابن الزبيـر محـمول على أنه تقدم بالجـيش الاحتـياطي ، ثم انفرد بطائفة يحمون ظهره لما أبصر ملك أفريقية .

٢ - حروب المسلمين البحرية -

كان المسلمون متفوقين على الروم في الحروب البرية فاغتنم الروم مقدرتهم في المجال البحري حيث يمتلكون عددًا كبيرًا من السفن، ولديهم بحارة متدربون، ولهم خبرة طويلة في مجال الحروب البحرية.. اغتنموا ذلك في الإغارة على سواحل المسلمين في الشام ومصر.

وقد كان معاوية رضي الله عنه أميرًا على بعض الشام فاستأذن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في حمل المسلمين في البحر لمقاومة هجمات الروم، وللاستيلاء على الجزر القريبة من بلاد المسلمين كجزيرة قبرص، ليأمن المسلمون من استخدامها معاقل للروم ينطلقون منها لغزو المسلمين.

وقد أخرج الإمام الطبري في ذلك من طريق سيف بن عمر عن جنادة بن أمية الأزدي قال: كان معاوية كتب إلى عمر كتابًا في غزو البحر يرغبه فيه، ويقول: يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص، فاتَّهمه عمر لأنه المشير، فكتب إلى عمرو - يعني ابن العاص- : أنْ صِفْ لي البحر، ثم اكتب إليَّ بخبره، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين إني رأيت خَلْقًا عظيمًا، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، وإنما هم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا بَرِق[1].

(١) يعني دهش، والمقصود أن راكبي البحر لايكادون يصدقون أنهم نجوا من دهشتهم.

فكتب عمـر إلى معاوية كـما جاء في رواية أخـرى للطبري : لا والذي بعث محمداً بالحق لاأحمل فيه مسلماً أبداً [1] .

* * *

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٥٩ .

٣ - فتح جزيرة قبرص -

تقدم لنا أن أمير الشام معاوية بن أبي سـفيان استأذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الغـزو البحري، وفتح جزيرة قبـرص، فأبى عليه خوفًا على المسلمين من مخاطر ركوب البحر .

فلما استُـخلف أمير المؤمنين عثـمان بن عفان أعـاد الكرة معاوية فاستأذنه في الغزو البحري، فتردد في ذلك ثم أذن له وقال: لاتنتخب الناس ولاتُقرع بينهم ، خيِّرهم فمن اختار الغزو طائعًا فاحمله وأعِنْه، ففـعل وسار بالمسلمين من الشـام ، وسار عـبد الله بن سـعد بن أبي السـرح من مصـر حتى لقـوا معـاوية فكان معـاوية على قيـادة ذلك الجيش.

وقـد ساروا حـتى وصلوا إلى جـزيرة قبـرص بسـلام ونزلوا من مراكـبهم، فأرسل ملك قـبرص يطلب الصلح فـصالحه مـعاوية على جزية قدرها سبعة آلاف دينار [١] وذلك معلوم أنه بعد أن دعاهم إلى الدخول في الإسلام فأبوا ذلك .

وقد شـارك في تلك الغزوة عبـادة بن الصامت وزوجتـه أم حرام بنت ملحان رضي الله عنهـما، وتحقق فيـها معجـزة لرسول الله ﷺ حيث أخبر بذلك ، كما أخرج الشيخان وغيرهما من حديث أنس بن مـالك رضي الله عنه قـال : دخل رسـول الله ﷺ على ابنة ملحـان فاتَّكأ عندها ثم ضحك ، فقالـت : لم تضحك يارسول الله ؟ فقال: ناس من أمتي يركبون البَحر الأخـضر في سبيل الله مثلهم مثل الملوك

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ - ٢٦٢ .

على الأسرة فقالت: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: اللهم اجعلها منهم، ثم عاد فضحك، فقالت له مثل - أو مم - ذلك، فقال لها مثل ذلك ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين ولست من الآخرين، قال أنس : فتزوجَتْ عبادة بن الصامت فركبت البحر مع بنت قرظة[1] فلما قفلت ركبت دابتها فوقصت بها فسقطت فماتت [2] .

وفي هذا الحديث بشارة خير لأولئك المجاهدين الذين ركبوا البحر للجهاد في سبيل الله تعالى ، حيث ظهر فرَحُه وسروره من جهادهم ووصفَهم بوصف يُشعر بعزتهم وقوتهم .

وقد جاء في سياق أحداث هذه الغزوة المذكورة خبر أبي الدرداء رضي الله عنه حينما نظر إلى سبي الأعداء فبكى، ثم قال: ماأهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فانظر إلى هؤلاء القوم بينما هم ظاهرون قاهرون لمن ناوأهم، فلما تركوا أمر الله عز وجلّ وعصوه صاروا إلى ما ترى .

هذا وإن ماتفوَّه به أبو الدرداء ، يعتبر مثلا للبصيرة النافذة والفقه في أمر الله تعالى ، فهذا الصحابي الجليل يبكي حسرة على هؤلاء الذين أعمى الله بصائرهم فلم ينقادوا لدعوة الحق فباؤوا بهذا المصير المؤلم حيث تحولوا من الملك والعزة إلى الاستسلام والذلة، لإصرارهم على لزوم الباطل والتكبر على الخضوع لدعوة الحق ولو أنهم عقلوا

---

(١) يعني فاختة بنت قرظة زوجة معاوية .

(٢) صحيح البخاري رقم ٢٨٧٧ ، صحيح مسلم ١٣/٥٧ .

وتدبروا لكان في دخـولهم في الإسلام بقـاء ملكهم وعمـران ديارهم والظفر بحماية دولة الإسلام .

إن هذا التفكر العـميق من أبي الدرداء مظهر من مظاهر الرحـمة والعطف تفتحت عنه نفسه الزكية ، فتشكل ذلك في الظاهر على هيئة دموع تتحدر من عيني هذا الرجل العظيم ، لتعبر عما يجول في نفسه من نظرات الحنان والرحمة والأسى على مصير تلك الأمة التي اجتمع لهـا البقـاء على الضـلال والمآل السيء بزوال الملك والوقـوع في الذل والهوان .

وإنه بقدر مايفرح المسلم بدخول الناس في الإسلام فإنه يحزن من رؤية الكافـرين وهم يعـيشـون في ضلال مع إدراكـه مـاينتظرهم من العذاب الأليم المؤبد في الآخرة ، فكيف إذا أضيف إلى ذلك وقوعهم في الأسر والتشرُّد وتعرضهم للقتل في الحياة الدنيا ؟

هذا ومن المواقف العـالية في هذا الفتح مـاقام به مـعاوية بن أبي سفيـان من اهتمام بالغ بالجهـاد في سبيل الله تعالـى ، وبدقة إدراكه الحربي حيث علم أن السيطرة على البرِّ وحده لاتكفي لأن خطر الروم على المسلمين سـيبـقى ماثلا دائمًـا من جهـة البحر ، وبسـبب ذلك تتعرض المدن الساحلية لغارات متكررة من قبل الأعداء .

ولقد كـان له شرف قيادة أول حـملة بحرية ، وهي التي شبهـها رسول اللـه ﷺ بالملوك على الأسرة، وهذا إشـارة إلى ماآل إليـه أمر الأمة الإسلامية من العزة والتمكين في الأرض .

وعاد المسلمـون من قبرص بعدمـا خلَّفوا وراءهم تلك الصحـابية

الجليلة التي كانت موضع تقدير النبي ﷺ واهتمامه ، وأصبح الناس يمرون على قبر أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها ويقولون : هذا قبر المرأة الصالحة [1] .

ولقد كان فتح جزيرة قبرص في غاية الأهمية لأنه كان بداية هيمنة المسلمين على البحر الأبيض المتوسط .

*   *   *

(١) حلية الأولياء ٢/ ٦٢ ، البداية والنهاية ٧/ ١٥٩ .

٤ – غزوات ابن قيس البحرية –

مازال معاوية رضي الله عنه مهتمًا بالغزو البحري ، وذلك لتثبيت هيمنة الدولة الإسلامية وحمايتها من هجمات الروم، فاختار لهذه المهمة قائدًا فذًا جمع بين الشجاعة والخبرة، وهو عبد الله بن قيس الجاسي .

وقد جاء خبره في رواية للإمام الطبري من حديث خالد بن معدان وفيه « واستعمل – يعني معاوية – على البحر عبدالله بن قيس الجاسي حليف بن فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد ولم يُنكب ، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده ، وأن لايبتليه بمصاب أحد منهم ، ففعل[١] – يعني استجاب الله دعوته – .

ولنا وقفة مع ماقام به عبد الله بن قيس من اهتمامه بتهيئة الأسباب اللازمة للنجاح مع توكله العظيم على الله تعالى ودعائه المذكور بأن يعافيه في جنده ، وقد مرَّت علينا أخبارٌ رأينا أن القائد فيها يسأل الله تعالى أن يرزقه الشهادة ، ولقد كان الدعاء بالسلامة في تلك المعارك البحرية أولى من طلب الشهادة لأن عبد الله بن قيس كان رائد تلك المعارك ، وقد كان المسلمون يتخوفون ركوب البحر والقتال فيه لما يشتمل عليه من مخاطر ، فكانت سلامة تلك الحملات البحرية أمرًا منظورًا إليه لإزاحة الشعور بالخوف من الحروب البحرية .

وقد سلَّم الله تعالى ابن قيس في خمسين غزوة بث فيها الرعب

---

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ .

في قلوب الروم حتى تبين لهم أنهم لم يعودوا سادة البحر ، وأن المسلمين قد تفوقوا عليهم في غزو البحر كما تفوقوا عليهم سابقًا في غزو البر .

أما نهاية هذا القائد المحنَّك فقد جاء في الرواية المذكورة « حتى إذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في قارب طليعةً فانتهى إلى المرفأ من أرض الروم وعليه سُؤَّال يعترُّون بذلك المكان - يعني مساكين يسألون - فتصدق عليهم .

فرجعَت امرأة من السؤَّال إلى قريتها فقالت للرجال: هل لكم في عبد الله بن قيس ؟ قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرفأ ، قالوا أي عدوة الله ! ومن أيْن تعرفين عبد الله بن قيس ؟ فوبَّختهم ، وقالت: أنتم أعجز من أن يخفى عبد الله على أحد ، فثاروا إليه فهجموا عليه، فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده ، وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه.

فجاؤوا حتى أرسوا بالمرفأ ، والخليفة عليهم سفيان بن عوف الأزدي ، فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يعبث بأصحابه ويشتمهم ، فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ، ماهكذا كان يقول حين يقاتل فقال سفيان : وكيف كان يقول : قالت :«الغَمَرات ثم يَنْجَلينا» قال: فترك ماكان يقول ولزم « الغمرات ثم ينجلينا» وأصيب في المسلمين يومئذ ، وذلك آخر زمان عبد الله بن قيس الجاسي .

وقيل لتلك المرأة بعد : بأي شيء عرفتيه ؟ قالت: بصدقته، أعطى كما يعطي الملوك ، ولم يقبض قبض التجار، وفي رواية قالت:

كان كـالتاجر ، فلمـا سألته أعطاني كـالملك فعرفت أنه عـبد الله بن قيس[1].

وهكذا حـينما أراد الله تعـالى أن يمنَّ بالشـهادة على هذا القـائد العظيم أُتيـحت له وهو في وضع لايضر بسـمعـة المسلمين البحـرية، حيث كان وحده يتطلع ويراقب الأعـداء، فكانت تلك الكائنةُ الغريبة التي أبصرَتْ غورها تلك المرأة الذكية من نساء تلك البلاد، حيث رأت ذلك الرجل يظهر في مظاهره الخارجية بمظهر التجار العاديين ، ولكنه يعطي عطاء الملوك ، فلقد رأت فـيه أمارات السيادة مع بـساطة مظهره فعرفت أنه قائد المسلمين الذي دوَّخ المحاربين في تلك البلاد .

وهكذا كانت سـماحة ذلك القائد وسـخاؤه البارز حتى مع غـير المسلمين سببًا في كشف أمره ومعرفـة مركزه ، ليقضي الله تعالى أمرًا كان مفعولا ، فيتم بذلك الهجوم عليه وظفره بالشهادة .

وهكذا يضرب قـادة المسلمين المُثُل العليا بأنفسهم لـتتم الإنجازات الكبرى على أيديهم ، وليكونوا قـدوة صالحة لمن يخلفهم ، فـقد قام هذا القائد الملهم بمهمة الاستطلاع بنفسه ولم يكل الأمر إلى جنوده ، وفي انفـراده بهـذه المهمـة مظنة للـتورط مع الأعـداء والهـلاك على أيديهم، ولكنه مع ذلك يغامر بنفسه فيتولَّى هذه المهمة،ثم نجده يتخلَّق بأخلاق الإسلام العليا حتى مع نساء الأعداء وضعَفتهم فيمد إليهم يد الحنان والعطف ، ويسخُو لهم بالمال الذي هو من أعز مايملك الناس.

ونجده قبل ذلـك مع جنده رفيقًا صـبورًا ، لامعنِّفًا ولامسـتكبرًا،

(١) تاريخ الطبري ٤/ ٢٦٠ - ٢٦١ ، الكامل لابن الأثير ٣/ ٤٩ .

وإذا إدلهمّت الخطوب تفاءل بانكشاف الغمة ولم يلجأ إلى لوم أصحابه وتعنيفهم ، ولم يهيمن عليه الارتباك الذي يفسد العمل، ويعجّل بالخلل والفوضى .

أما خليفته سفيان الأزدي فلعله وقع فيما وقع فيه من الارتباك والاشتغال بطرح اللائمه على جنده لكونه حديث العهد بأمور القيادة ولكن مما يُحفظ له أنه لما نبَّهته جارية عبد الله بن قيس إلى ذلك الأسلوب الحكيم الذي كان أميره ينتهجه في القيادة سارع في التأسي به في ذلك ، ولم يحمله التكبر على عدم سماع كلمة الحق وإن صدرت من جارية مغمورة .

وهذا مثل من أمثلة التجرد من هوى النفس. . هذا الخلق العظيم الذي كان غالبًا في الجيل الأول ، وبه تمَّ إنجاز الفتوحات العظيمة ، ونجاح الولاة والقادة في إدارة أمور الأمة .

فلله در أبناء ذلك الجيل : ماأبلغ ذكرهم ، وماأبعد غورهم، وماأعظم وطأتهم في الأرض على الجبارين ، وماأعذب لَمَساتهم في الأرض على المستضعفين والمساكين !!

* * *

٥ – غزوة ذات الصواري –

إن من أهم المعارك البحرية التي خاضها المسلمون معركة « ذات الصواري » وذلك في أواخر خلافة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه.

وقد ذكر الإمام الطبري عن عاصم بن عمر بن قتادة: أن أهل الشام خرجوا ، وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى أهل البحر عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وخرج عامَئذٍ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بأفريقية ، فخرجوا في جمع لم يجتمع للروم مثله قط منذ كان الإسلام ، فخرجوا في خمسمائة مركب، فالتقوا هم وعبد الله بن سعد ، فأمَّن بعضهم بعضا حتى قرنوا بين سفن المسلمين وأهل الشرك ، بين صواريها (١) .

قال مالك بن أوس بن الحدثان : كنت معهم ، فالتقينا في البحر فنظرنا إلى مراكب مارأينا مثلها قط، وكانت الريح علينا، فأرسينا ساعة، وأرسوا قريبًا منا، وسكنت الريح عنا . فقلنا: الأمْنُ بيننا وبينكم ، قالوا : ذلك لنا ولكم ، ثم قلنا : إن أحببتم فالساحل حتى يموت الأعجل منا ومنكم ، وإن شئتم فالبحر، فنخروا نخرة واحدة، وقالوا : الماء ، فدنونا منهم فربطنا السفن بعضها إلى بعض حتى كنا يضرب بعضنا بعضًا على سفننا وسفنهم ، فقاتلنا أشد القتال، ووثب الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجئون

(١) جمع صار ، وهو الخشبة المعترضة وسط السفينة ، وبذلك سميت المعركة ذات الصواري .

بالخناجر حتى رجعت الدماء إلـى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركاما .

وجاء في رواية حنش بن عبد الله الصنعاني أن عبد الله بن سعد قال: اشيروا عليَّ ، قالوا : ننظر الليلة ، فباتوا - يعني الروم- يضربون بالنواقيس ، وبات المسلمون يصلون ويدعون الله تعالى .

وجاء في رواية ابن أعثم الكوفي أن العدو باتوا ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطنابير ويشربون الخمور، وينفخون في الصفارات، وأن المسلمين جعلوا يكثرون من قراءة القرآن، ولايفترون عن الصلاة والدعاء [1].

وفي سياق رواية حنش الصنعاني عند الطبري قال: ثم أصبحوا وقد أجمع قسطنطين على أن يقاتل، فقرَّبوا سفنهم، وقرَّب المسلمون، فربطوا بعضها إلى بعض، وصفَّ عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن، وجعل يأمرهم بقراءة القرآن ويأمرهم بالصبر .

قال : وَوَثَبَت الروم في سفن المسلمين على صفوفهم حتى نقضوها، فكانوا يقاتلون على غير صفوف ، قال: فاقتتلوا قتالا شديدًا، ثم إن الله تعالى نصر المؤمنين ، فقَتَلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد [2] .

وهكذا تم نجاح المسلمين في الغزو البحري بانتصارهم في هذه المعركة الكبيرة، فأصبحوا سادة البحر كما كانوا سادة البر، وفقد الروم أملاً من آمالهم في التفوق العسكري البحري .

---

(١) الفتوح لابن أعثم ١/ ٣٥٤ .

(٢) تاريخ الطبري ٤/ ٢٩٠ - ٢٩٢ .

لقد فضَّل الروم القتال في البحر حينما خيَّرهم المسلمون، لأنهم قد ذاقوا الأمرَّين من قتال المسلمين في البر، وجرَّبوا معهم كل مافي وسعهم من الحِيَل والاستعداد فلم ينجحوا معهم في ذلك ،وكان مصير جميع حروبهم الفشل، فلجئوا إلى القتال في البحر لخبرتهم الطويلة فيه، وقلة تجربة المسلمين وضعف استعدادهم ، فغلب على ظنهم الظفر بالمسلمين في تلك المعركة الكبرى التي بالغوا في الاستعداد لها .

وقد جاء في هذا الخبر بيان أهم الأسباب التي أدت إلى نجاح المسلمين وإخفاق عدوهم، حيث بات الروم ليلة المعركة يضربون بالصنوج والطنابير ويشربون الخمور، وينفخون في الصفارات، بينما بات المسلمون مصلِّين ، لايفترون عن الدعاء وتلاوة القرآن، وفَرقٌ كبير بين معسكر يبيت على اللهو والمجون، ومعسكر يبيت على الجد والحزم والترقب .

وفَرقٌ بين معسكر مقطوع الصلة بالسماء ، يستمد وجوده وبقاءه من قوى الأرض الضعيفة الهزيلة ، ومعسكر قد اعتصم بحبل الله المتين، فأنظاره ليست مقصورة على الأرض بل هي متجهة أولاً وأخيرًا إلى السماء .

فَرقٌ بين معسكر يرى أن قوته محصورة في إمكاناته المادية الماثلة أمامه، ومعسكر يعتقد اعتقاداً جازمًا بأن قوة عظمى تهيمن عليه وعلى أعدائه هي قوة الباري جل وعلا ، وأن الله تعالى قد وعد عباده الصادقين بالنصر، وأن ذلك قد تأكد لهم بما شاهدوا من خروجهم من المآزق ونجاتهم من المهالك بما يشبه الخوارق .

وأخيرًا فَرْقٌ بين من يقاتل وقصارى همِّه مستقبله ومستقبل دولته الدنيوي ، ومن يقاتل وطموحاته تسمو إلى المستقبل الأخروي . . إن الأول يقاتل ليستبقى نفسه قبل كل شيء حتى يتمتع بثمرات النصر في هذه الحياة الدنيا، التي ربط بها مستقبله وآماله ، أما الثاني فإنه يقاتل وفي ذهنه سلوكُ أمثل الطرق وأقربها لتأمين الدرجات العُلَى في مستقبله الأخروي، وهذا الشعور يجعله يستميت في جهاده، والمنطق العقلي يقتضي أن مثل هذا لايُقتَل حتى يفتك بأعدائه الذين يحبون الحياة كما يحب هو الموت .

ومع ملاحظة هذه الفوارق فإن أمر انتصار المسلمين يبدو واضحًا له مسوغاته القوية التي تشحن المجاهدين بقوة عارمة لايقف أمامها شيء مهما كانت الفوارق المادية ، مادام المجاهدون ملتزمين بحبل الله المتين .

ولقد كانت هذه المعركة مظهرًا من مظاهر تفوق العقيدة الصحيحة الصلبة على الخبرة العسكرية والتفوق في العَدد والعُدد، فلقد كان الروم هم أهلَ البحر منذ القدم ، وقد مروا بتجارب طويلة في الحروب البحرية ، بينما كان المسلمون حديثي عهد بركوب البحر والقتال البحري، ولكن الله تعالى أدال المسلمين عليهم برغم التفوق المذكور لأنه سبحانه قد سخر أولئك المؤمنين لنشر دينه وإعلاء كلمته في الأرض .

وإن مما يُشاد به في هذه المعركة قوة قائدها عبد الله بن سعد بن أبي سرح ورباطة جأشه ، ومقدرته الجيدة على إدارة الحروب .

وهي بعـد ذلك لون من ألوان بسـالة المسلمين واسـتقـتـالهم في الحروب بأنفسهم في سبيل إعزاز دينهم ورفع شأن دولتهم .

* * *

٦ - غزو جزيرة صقلية -

قال المؤرخ أحمد بن أعثم الكوفي ثم تهيأ المسلمون لغزو صقلية وكانت عظيمة الشأن ، قال: وإنما كان مُلك الروم في ثلاثة مواضع من الأرض في صقلية ورومية وقسطنطينية ، قال: وكان مَلك قسطنطينية في قديم الدهر إلى يومنا هذا يلبس خفين أحمرين، ويأذن لصاحب صقلية في أن يلبس فردًا أحمر وفردًا أصفر، ويأذن لصاحب رومية أن يلبس فردًا أحمر وفردًا أخضر ، ويأذن لسائر البطارقة أن يلبسوا أخفافًا سودًا . قال: وكانت جزيرة صقلية هذه جزيرة واسعة خصيبة مسيرة ثلاثة أيام في مثل ذلك، فيها عيون غدقة وزروع وأشجار وخير كثير، فعزم معاوية على غزوها وكتب إلى عثمان في ذلك قال : وبلغ أهل أفريقية فبعثوا إلى أهل صقلية بأن العرب قد أجمعوا على حربكم فكونوا من ذلك على حذر .

قال: واتصل هذا الخبر بصاحب صقلية فغضب لذلك وقال: طمعت العرب في غزونا لعلهم يظنون أننا كأهل إفريقية، ولايرضى العرب منا أن نمسك عنهم ولانغزوهم .

قال: وخطف المسلمون من ساحل البحر في ثلاثمائة مركب فلم يشعر أهل صقلية إلا ومراكب المسلمين قد طلعت عليهم، فنظروا إليها. قال: وبلغ ذلك ملك صقلية، فأشرف من قصره ومعه جماعة من بطارقته، فنظر إلى مراكب المسلمين قد أقبلت وعليها الرايات والمطارف والأعلام ، وفيها الرجال بالسلاح الشاكِ الذي لم ير مثله، قال: فنظر ملك صقلية إلى مراكب كثيرة وإلى سلاح شاكٍ لم يكن يظن أنه يكون عند العرب مثله .

قال: وكان صاحب قيسارية لما هرب من أيدي المسلمين صار إلى صاحب صقلية ، وكان عنده من ناحية ، فكان يحدث صاحب صقلية عن العرب ومافتحت من أرض الشام ومن مدن سواحلها. فلما كان ذلك اليوم ، التفت صاحب صقلية إلى صاحب قيسارية فقال له: إن هولاء أكثر من أولئك الذين كانوا بأرض الشام ؟ فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! كانوا أكثر من هؤلاء ، وكانوا أيضًا قومًا صالحين أصحاب نيات وبصائر، يقاتلون على نية ودين وحسن يقين، وهؤلاء أظن أنهم يريدون الدنيا ، فلو أن الملك أعطاهم شيئًا يدفع به عن بلده لكان ذلك عندي له الرأي ، قال: فغضب ملك صقلية من ذلك ثم قال له : أنت رجل مرعوب لأنك قد رأيت منهم بقيسارية ماقد رأيت من ظهورهم على بر الشام وبحرها ، وإن في صقلية اليوم من الرجال الذين يحملون السلاح مثل مافي الشام في برها وبحرها، ومثل مافي أرض مصر ، وإني لأعرضهم على مائة عارض فيمكثون سنة يعترضون .

قال : فقال له صاحب قيسارية : صدقت أيها الملك ! ولذلك فارقتُ ملك الروم لَمَّا مضى إلى القسطنطينية ، وصرت إليك لما أعلم من حزمك وعزمك وكثرة خيلك ورجلك، وإن صقلية عندي أيها الملك لتقاس إلى رومية ، قال : فسُرِّي عن صاحب صقلية وقال: صدقت أيها الملك هي كذلك، قال: وإنما خدعه صاحب قيسارية بهذا الكلام ، لأن رومية في البر دون مدينتها أربعون ميلاً .

قال : وأرسى المسلمون مراكبهم في جزيرة صقلية ، قال: فأرسل

إليهم ملكها أن ابعثوا إلي منكم رجلاً له بيان حتى أكلمه بما أريد .

قال: فبعث المسلمون إليه برجل ومعه ترجمان يخبره بما يقول الروم فأقبل حتى وقف حذاءه وصاحب صقلية مشرف عليه، فقال: ماأنتم ؟ فقال المسلم : من العرب الذين قد بلغت دعوتنا أطراف الأرض وأكناف الجبال وأقطار البحار ، لأن الله عز وجل بعث إلينا رسولاً هو أفضلنا بيتًا وأصدقنا حديثًا ، وأكرمنا نفسًا ، فدعانا إلى الله عز وجل ، فأجبنا رسول الله وآمنا به وصدقناه، واتبعه منا من اتبعه وأبى منا من أبى ، فقاتل من أبى عليه بالذين اتبعوه حتى أظهره الله عز وجل على العرب قاطبة، إما راغب فيما دعاه إليه، وإما راهب من فَرَق السيف، ولقد أقر له هرقل ملك الروم من قبل بالنبوة، وشهد له بالرسالة ولم ينكر له ذلك ، ولقد خبرنا نبينا محمدﷺ من قبل وفاته بأن الله تعالى يفتح علينا ويظهرنا على جميع الأديان، وقد بلغك ماكان منا بأرض الشام لما قتلنا أهلها وسبيناهم حتى لم يلتق منهم اثنان في موضع واحد ، ونحن على مانحن عليه من الضعف وقلة المال والسلاح والكراع حتى هرب منا هرقل إلى قسطنطينية خائفًا مرعوبًا ، فلم يزل كذلك حتى مات بحسرتنا، ثم قام من بعده قسطنطين ، فقد بلغك مانزل به منا ، وأنا قتلنا أصحابه في البحر وأخذته الرماح ، وأثخنته الجراحات، حتى صار إليكم وشمتّم به، فهذه قصتنا وهذه حالتنا ، فلِمَ تسألنا عن أمرنا كأنك لاتعرفنا أو كأنك جاهل بما لقيتم منا .

قال : فتبسم صاحب صقلية ثم قال : صدقت ، نحن قتلناه،

لأنه خرج بـالروم في أيام ريح عاصـفة فأهلكـهم في البحـر، ثم نجا وصار إلينـا ، فلم نحب أن يرجع إلى أهله سالمًا حـتى نُوتم أهله منه وولده كما أيتم الـروم ، قال: ثم التفت صاحب صقلـية إلى صاحب قيسارية فقال: مايخـفى على العرب شيء من أمرنا ؟ فقال: نعم أيها الملك ، وكذلك لايخفى علينا شيء من أمورهم .

قال: ثم أقـبل صاحب صـقلية على المسلم فـقال: خـبِّرني الآن عنكم لماذا قصدتمونا فـي مثل هذا البحر ؟ فقـال له المسلم: قصدناكم لندعوكم إلى أن تدخلوا في الإسـلام وتأمنوا على دياركم وأموالكم، ونولِّي عليكم رجلاً منكم تقـيمون الصلوات الخمس وتصومـون شهر رمضان ، وتحجـون البيت الحرام ، وتُؤْخذ الصدقة من أغنـيائكم فتُرد على فقرائكم ، فإن أبيتم الدخول في ديـننا فاقبلوا عهدنا وذمتنا وأدوا الجزية إلينا وقرُّوا فـي دياركم آمنين . فإن أبيتم ماعرضنـاه عليكم فقد أنذرناكم وأعذرنا إليك ، فاعلموا أن مـا بيننا وبينكم إلا السيف، فإن قُـتلنا كنا علـى بيّنة من ربنا ، إنا في الجنة وأنـتم في النار أو أظفـرنا بكم، فذاك ما وعدنا نبينا محمد ﷺ .

قال : فـقال صـاحب صقليـة لترجمـانه : قل له الآن عني إنك تكلّمت وقلت ما أردت فذرنا حتى نتكلم بما نريد ، فقال المسلم: قل ماتشاء ، فقال: قل له عني : إنكم قـد اغتررتم بأنفسكم بغزوكم إيانا في مثل هذا البـحر ، وظننتم أن صـقلية إنما هي كـمدائن الروم التي افتتـحتموها من قـبل ، وليس الأمر كما تقولون ولا كـما ظننتم، إن صقلية أمنع من ذلك ، وأنتم قد ندمتم على مسيركم إلينا عندما رأيتم

من جمعنا وعددنا وكثرة سلاحنا، فلو أنكم أردتم أن ترجعوا إلى بلادكم لم تقدروا على ذلك ، لأنكم قد لججتم في هذا البحر حتى وصلتم إلينا ، ولسنا نحب أن تعتادوا هذه العادة علينا في قلتكم وكثرتنا ، لأنه لم يطمع أحد من أعدائنا في هذا منا ولم يغزنا قط أحد من قبلكم إلا ذل وخضع، وإنا لنغزو جميع أهل الأديان في ديارهم فنسبيهم ، ونذلهم ونأتي بهم إلى جزيرتنا هذه أسارى أذلة صاغرين ، وأما ما عرضتموه علينا من اتباع دينكم فهذا ما لايكون ، ولست أفارق ديني أبداً ، وأما ما سألتموه من الجزية فقد يجب عليكم أن ترضوا مني بالمساكتة والمسالمة أن لاأغزوكم في بلادكم .

فلما فرغ صاحب صقلية من كلامه أقبل المسلم على الترجمان فقال: قل له عني : إني أراك قد بغيت في كلامك، والبغي منقصة وشؤم ومصرعة وحتم ، ونحن نرجو أن يُدال عليكم ببغيكم، ونحن قوم لانرى القتل سُبَّة ، ولا الموت عاراً ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم .

قال : فبينما المسلم يكلّم صاحب صقلية بهذا الكلام ونحوه، وإذا بِطْريقٌ منهم قد أشرف من جدار القصر وقال: أيها العربي! قد أكثرت علينا من كلامك ولكن من يبارزني منكم ؟ فقال له المسلم: يبارزك أدنانا رجلاً وأضعفه في نفسه ، قال: فغضب البطريق من ذلك وقال : ياكلاب ! وفيكم من يبارزني ! ثم إنه بادر ونزل ، فخرج من باب القصر وفي يده سيف له مشطّب ودرقة مذهبة ، وعليه قباء حرير ويلمق ديباج ، قال: فبرز إليه رجل من أهل إفريقية واختلفا

بضربتين، ضربه الأفـريقي ضربة على أم رأسه فسقط البطريق قـتيلاً، ثم وقف عليه الأفـريقي فجـعل يسلبه وصاحب صـقلية مع بطارقـته ينظرون إليه ، ثم وقف الأفريقي ونـادى بأعلى صوته : من يبارزني؟ قال صاحب صقلية : من هذا منكم ؟ فقال له المسلم : هذا رجل من أهل أفريقية وقد كان من خدمكم ، فمنَّ الله عز وجل عليه بالإسلام فأسلم ، وقـد رأيتَ مافعل بصاحـبكم ، فكيف لو برز إليه رجل من حزبنا .

قال: فنزل صاحب صقلية من قصـره مغمومًا ، وخرج المسلمون من المراكب فأغاروا على أطراف صقلية ، فسبوا وغنموا ، ثم أخرجوا مجانيق كانت مـعهم فنصبوها على حصونهم ورموهم رمـيًا متداركا، ورزق الله عز وجل المسلمين من اعتـدال حجارة مجانيقـهم وقصدها لحصون الكفار وقصورهم شيئًا عجيبًا ، قال: ورمت الروم بالعرّادات، فلم يكن لعرّاداتهم نكاية . قـال: وقهرهم المسلمون حـتى أحجزوهم في دورهم وقصورهم .

قال : فعندها خرج صاحب صقلية من قصره، واجتمع إليه أهل مملكته بأجـمعهم فـعطعطوا ونفخوا في البـوقات ، وأظهروا مـاقدروا عليـه من آلة السلاح ، قـال: وصفّ المسلمـون صفـوفهم وأظهـروا سلاحهم، واقـتحمت الروم على ميـسرة المسلمين وكشفـوهم وثبتت الميمنة والقلب ، فـقاتلوهم ساعـة ، ثم رجعت ميـسرة المسلمين إلى موضـعهـا، ودامت الحرب بـينهم يومهم ذلك ، فـقتل من الفـريقين جمـاعة، ثم افـترقوا وذلك وقـت المساء، حتى إذا مـضى من الليل

بعضه أغار المسلمون على قراهم وحصونهم ، فسبوا سبيًا كثيرًا وغنموا من الغنائم ما ملأت أيديهم ، ثم رجعوا مراكبهم .

قال: وبلغ ذلك صاحب صقلية فاغتم لذلك غمًا شديدًا، ثم أرسل إلى مقاتلته فدعاهم إليه وقال: مابالكم لاتغيرون عليهم كما يغيرون عليكم ؟ سوءًا لكم ! لقد خشيت أن تؤخذ صقلية منكم كما أخذت الشام من قبل ، قال: فسكتت الروم ولم يقولوا شيئًا، فقال له صاحب قيسارية : أيها الملك ! إنني أشير عليك أن تكتب إلى الملك الأكبر وتسأله المدد ، فقال : لا فعلت ذلك أبدًا ، ولو أخذت صقلية من يدي . قال: فلم يزل المسلمون في المحاربة حتى ملؤوا أيديهم من الغنائم وقتلوا منهم بشرًا كثيرًا .

قال : وبلغ ذلك ملك الروم فجهز إلى صقلية ستمائة مركب فيها المقاتلة والسلاح، قال: واتصل الخبر بالمسلمين قبل أن يتصل بأهل صقلية، فرأوا من الرأي أن يرحلوا ، فقال لهم أميرهم : ليس الرأي أن ترحلوا نهارًا ، فإنا لاندري مايكون من الحَدَثان، ولكن أخروا هذا إلى الليل ، فقالوا : ذاك أيها الأمير !

قال : فلما كان الليل وهدأت العيون قعد المسلمون في مراكبهم وخطفوا من ساحل صقلية ، وهبت الريح ،ورفعوا الشراع، وسارت المراكب على تؤدة بغير هول ولافزع حتى أصبحوا على بلد بعيد من صقلية ، ثم ساروا حتى صاروا إلى ساحل الشام ، فخرج المسلمون من المراكب فأرسوها ثم أخرجوا تلك الغنائم وذلك السبي، فأخرج معاوية في ذلك كله الخمس ووجه به إلى عثمان، وكتب إليه يخبره بسلامة المسلمين وماكان من أمر صقلية .

قال : فسرّ عثمان بذلك ، وقسم الخمس على أهل المدينة، وقسم معاوية مابقي من بعد الخمس في المسلمين [1] .

في هذا الخبر مواقف وعبر :

فـمن ذلك أولا : بيـان مـايتـصف به مـلوك الكفـار آنذاك من الانخداع بمظاهر الدنيـا إلى حد السذاجـة في التفكير حـيث يخصص ملك الروم له اللون الأحـمر للحذاء ، فـلا يلبس من هم دونه بذلك اللون ، وحيث إن ملك صقلية يليه في العـزة فإنه يأذن له بفرد أحمر ويكون الآخر باللون الأصفر ، ثم يليهـما ملك روما حيث يلبس فردًا أحمر وفردًا أخضر ، ثم بقية الأمراء حيث يلبسون باللون الأسود.

وهذا السلوك يدل على اسـتـغـراقهم في الطبـقـيـة ، وضحـالة تفكيرهم حيث ربطوا معالي الأمور بهذه المظاهر الدَّنيه .

وثانيًا : في الحوار الذي جرى بين مندوب المسلمين وملك صقلية يتبين وضوح المسلمين في عرض قضيتهم ، فهم يقومون بعرض موجز للإسلام يبـينون محـاسنه بالمقارنة بمسـاويء الجاهلية ثم ينـطلقون إلى العروض الثلاثة المعروفه : الإسلام أو الجـزية وإلا فالمناجزة بالقتال ، فهـم يبدؤون أولا بالدعـوة إلى الإسلام ويبـينون للمدعـوين أنهم إذا أسلموا يكونون كأمة الإسلام تماما في جميع الحقوق ، وهذا يدل على أن الهدف الأعلى عندهم هو نشر الإسلام في الأرض .

ثم يعرضـون دفع الجزية مقابل حـمايتهم من قِـبَل دولة الإسلام بحيث تكون دولتهم تابعة للدولة الإسـلامية ، وفي هذا إزالة لكبرياء

---

(١) الفتوح لابن أعثم ١/ ٣٦١ - ٣٦٦ .

الكفار وتحطيم لطغيانهم ، حيث يستطيع أبناء تلك البلاد أن يدخلوا في الإسلام متى شاؤوا ولايكون لدولتهم سلطان عليهم بمنعهم من ذلك لأن السلطان لدولة الإسلام ، وبهذا فإن الشعوب ستُقبل على الدخول في الإسلام إذا فهموا دعوته خاصة بعد معرفة المزايا الدنيوية، المادية منها والمعنوية ، مثل وضع الجزية عمن أسلم وظفره بالعطاء السنوي الذي يُعطى لأفراد المسلمين ، وكونه يصبح أثيرًا ومقربا لدى الدولة الإسلامية ذات السلطان الكبير .

وأخيرًا فإن في قول مندوب المسلمين « ونحن قوم لانرى القتل سُبَّة ولا الموت عارا ، والقتل أحب إلينا من الخمر إليكم» إظهارًا لعزة المسلمين وشجاعتهم وتصميمهم على القتال ، وتيئيسا للأعداء من محاولة الطمع في تحويل المسلمين عن أهدافهم ومناهجهم المذكورة.

ثالثًا : في المبارزة المذكورة حسن اختيار من المسلمين ، حيث اختاروا رجلا من أهل أفريقية الذين كان الروم يحتقرونهم ، ولقد أذهل الروم أن يتفوق عليهم في ذلك أبناء أفريقية الذين كانوا قبل دخولهم في الإسلام يستذلونهم ويستخدمونهم ، ولئن سلَّموا للعرب هذا التفوق ، واعتبروا ذلك اكتشافًا لأمر كانوا يجهلونه فما بال الأفارقة الذين كانوا يخشون الروم ويعيشون تحت استعبادهم ؟ !

ولقد بدا ظاهرًا للعيان أن صانع هذا التفوق هو الإسلام وأن الناس بدون هذا الدين متقاربون في الكفاءات وتبادل فرص النجاح والإخفاق ، ولكن ما أن يدخل الإسلام في المعارك حتى تتبدل الموازين فتعلو كفة المسلمين وتنخفض كفة الكافرين مهما كانت جنسياتهم .

وإن ذلك وحده كان كافيًا لإقناع أصحاب العقول الراجحة والأفكار النيرة كي يراجعوا حساباتهم نحو هذا الدين ، وقد تم بالفعل تأثر الملايين من الناس وانجذابهم آنذاك إلى الإسلام لما زال حكم الطغاة الذين كانوا يحولون بينهم وبين التفكير المتأمل والنظر الصحيح .

رابعًا : في خبر معرفة المسلمين بتلك السفن التي أبحرت من القسطنطينية لنصرة أهل صقلية دليل على اتصاف المسلمين الأوائل بدقة الرصد والمعرفة الجيدة لتحركات الأعداء حيث علموا بإبحار السفن من بلاد الروم قبل أن يعلم بذلك أهل الجزيرة .

وأغلب الظن أن معاوية - رضي الله عنه - وهو السياسي المحنَّك والقائد الحربي البارع قد وضع طلائع في البحر يرصدون حركة الأعداء ، حتى لايُعرِّض تلك الحملة التي توغلت في أعماق البحر للخطر ، فيكون في ذلك تغرير بالمسلمين وانتكاسة للجهاد البحري .

هذا وإن ما اتخذه أولئك المجاهدون من قرار الانسحاب لما خشوا أن يحاط بهم لايُعتبر من الفرار يوم الزحف ، بل كان من التحيُّز إلى معسكر المسلمين الكبير في الشام ، فهو داخل في قول الله تعالى ﴿ **وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾[1]، وقد قال عمر رضي الله عنه حينما أصيب جيش المسلمين في العراق بقيادة أبي عبيد بن

(١) سورة الأنفال / ١٦ .

مسعود الثقفي : رحم الله أبا عبيد لو انحاز إليَّ لكنت له فئة ، كما سبق .

وفي قول الراوي « وهبَّت الرياح » مثل من عناية الله تعالى بأوليائه المجاهدين وحمايته لهم فإن السفن آنذاك تعتمد قبل كل شيء على هبوب الرياح ، وقد كانت الرياح لصالحهم فساقت سفنهم نحو ساحل الشام بسرعة كبيرة .

هذا ولقد خيب الله تعالى ظنون ملك الروم وحاكم صقلية حيث توقعوا هلاك تلك الفئة من المسلمين وقد أحيط بهم ، ولم يعلموا أنهم آساد يعرفون كيف يَردُون وكيف يصدرون عند اللزوم، وأنهم قبل ذلك مستظلون برعاية الله جل وعلا وحمايته، ولن يخيب من كان الله جل وعلا مولاه وناصره .

* * *

مواقف وعبر

فى خلافة

على بن أبى طالب رضى الله عنه

سيكون الكلام على عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه قليلا نظرًا لانشغاله طيلة مدة خلافته بالحروب الداخلية وإخماد الفتن ، فلم يكن هناك فتــوحات ولا أعمال جـهادية إلاَّ ماذُكر من قـيام أحد ولاة علي رضي الله عنه بالجهاد في السند وهو الحارث بن مرة العبدي(١) .

وقد تميزت مواقف أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بثلاثة أمور : أحدها العـدل في الحكم ، وثانيها الزهد في الدنيا والورع ، وثـالثها الوصايا والحِكَم التربوية .

من مواقفه في العدل :

من أمثلة عدله في الحكم ما أخرجه الإمام ابن جرير الطبري من خبر ناجية القرشي عن أبيه قـال : كنا قيامًا على باب القصر إذ خرج علي علينا فلمـا رأيناه تنحينا عن وجـهه هيبـة له ، فلما جـاز صرنا خلفه، فـبينما هو كـذلك إذ نادى رجل : ياغوثًا بالله ! فـإذا رجلان يقتتلان، فلكز صدر هذا وصدر هذا ، ثم قـال لهما : تنحيا ، فقال أحدهما: ياأمير المؤمنين إن هذا اشـترى مني شاة وقد شرطت عليه أن لايعطيني مغموزا ولامحذّقـا - يعني الدراهم المعيبة - فأعطاني درهمًا مغموزًا فـرددته عليه فلطمني ، فقال للآخر : مـاتقول ؟ قال: صدق ياأمير المؤمنين قال : فـأعطه شرطه ، ثم قال للاَّطم : اجلس ، وقال للملطوم : اقتص ، قال : أوعفو ياأمير المؤمنين ، قال : ذلك إليك،

---

(١) سيأتي - إن شاء الله - بيان ذلك في فتوح السند .

قال فلما جاز الرجل قال علي : يامعشر المسلمين خذوه، قال: فأخذوه فحمل على ظهر رجل كما يحمل صبيان الكتَّاب ، ثم ضربه خمس عشرة دِرَّة ، ثم قال : هذا نكال لما انتهكت من حرمته، وفي رواية أنه قال : هذا حق السلطان [1] .

هذا وإن هذا الخبر ليعتبر مثلا عاليًا للتواضع حيث يخرج أمير المؤمنين من بيته إلى السوق يتفقد أحول الناس ، ويقوم بنفسه في حل مشكلاتهم ، وهو نوع من السلوك العالي الذي يبرز وجود الولاة في واقع حياة الرعية سواء قام بذلك الوالي الأكبر أو من دونه، ولايلزم تكرر هذا الوجود كل يوم ، إذ يكفي شعور الناس بأن الولاة معهم في مشكلاتهم ليطمئن صاحب الحق على بقاء حقه في حوزته، وعودته إليه فيما لو اعتُدي عليه ، وليرتدع من تسوِّل له نفسه الاعتداء على حقوق الناس ، وقبل ذلك وأهم منه أن يرتدع كل من يحدث نفسه بالاعتداء على حق الله تعالى .

وهذا الوجود المتلاحم بين الوالي والرعية يظهر بصور متعدده تتناسب مع أنماط الحياة في كل عصر ، فلا يقولنَّ قائل بأن ماقام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يعتبر سائغًا في عصره ولكنه بعيد التَّصور في هذا العصر ، فإنه لاعبرة بالأشكال والصور ، وإنما العبرة بالأهداف والمقاصد التي بها تتحقق الحياة السعيدة للمسلمين، وذلك برعاية حق الله أولاً ثم حقوق الناس العامة والخاصة .

وفيما قام به أمير المؤمنين علي رضي الله عنه من إجراء العقوبة

---

(١) تاريخ الطبري ١٥٧/٥ .

على المعتدي مع تنازل صاحب الحق دلالة على إدراكه رضي الله عنه لمقاصد الإسلام من حفظ الأمن وإشاعة السلام بين المؤمنين ، وذلك لأنه سيرتدع من تميل نفسه إلى الاعتداء على غيره إذا عرف بأن العقوبة ستجرى عليه ولو عفا عنه خصمه .

ومن ذلك ما أخرجه الإمام الذهبي بإسناده من خبر الإمام الحسن البصري قال : لما قدم عليّ البصرة قام إليه ابن الكوَّاء، وقيس بن عبّاد فقالا له :ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرْتَ فيه، تتولّى على الأمة، تضربُ بعضهم ببعض ، أعهدٌ من رسول الله ﷺ عهدهُ إليك، فحدِّثْنا فأنت الموثوق المأمون على ماسمعت ؟فقال: أما أن يكون عندي عهدٌ من النبي ﷺ في ذلك فلا ، والله إن كنتُ أوّل من صدَّق به ، فلا أكون أول من كذبَ عليه، ولو كان عندي من النبي ﷺ عهدٌ في ذلك ، ماتركت أخا بني تَيْم بن مُرّة [1] ، وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ، ولقاتلتُهُما بيدي ، ولو لم أجد إلا بُرْدي هذا ، ولكن رسول الله ﷺ لم يُقْتل قتلا ، ولم يمتْ فجأة ، مكث في مرضه أيامًا وليالي ، يأتيه المؤذِّن فيؤذّنه بالصلاة ، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالناس ، وهو يرى مكاني ، ثمّ يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصّلاة، فيأمر أبا بكر فيصلّي بالنّاس ، وهو يرى مكاني ، ولقد أرادت امرأةٌ من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب وقال : «أنتنّ صواحب يوسف ، مُرُوا أبا بكرٍ يُصلِّ بالناس » .

فلما قبض الله نبيَّه ، نظرنا في أمورنا ، فاخترنا لدُنيانا من رضِيه

---

(١) يعني أبا بكر الصديق رضي الله عنه .

نبيُّ الله لدينا . وكـانت الصلاة أصل الإسـلام ، وهي أعظم الأمر، وقوام الدّين . فبايَعْنا أبا بكر ، وكان لذلك أهلا ، لم يختلف عليه منّا اثنان، ولم يشهـد بعضنا على بعضٍ ، ولم نقطع منه البـراءة، فأدّيتُ إلى أبي بكر حقَّـه ، وعرفت له طاعـته ، وغزوت مـعه في جنوده، وكنت آخذُ إذا أعطاني ، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسَوْطي، فلمّا قُبِضَ ، ولاّها عمر ، فأخذ بسُنَّة صاحبه،ومايعرف من أمره، فبايعْنا عمر ، لم يختلف عليه منّا إثنان ، ولم يشهـد بعضُنا على بعضٍ ، ولم نقطع البراءة منه، فأدَّيْتُ إلى عـمر حقَّه ، وعرفت طاعته، وغزوت معه في جيوشه ، وكنت آخُذُ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني ، وأضرب بين يديه الحدود بسَوطي .

فلمّا قُبض تذكَّرت في نفسي قرابـتي وسابقتي وسالفتي وفضْلي، وأنا أظنّ أن لايعْدل بي، ولكنْ خشي أن لايعمل الخليفة بعده ذَنْبًا إلا لحقَه في قبـره، فأخرج منها نفْسه وولده، ولو كـانت محاباةً منه لآثر بها ولَدَه فبريء منها إلى رهْطٍ من قريش ستّة ، أنا أحدُهُمْ .

فلمّا اجتـمع الرَّهْط تذكَّرت في نفسي قرابتي وسـابقتي وفضلي، وأنا أظنّ أنّ لايعْدلوا بي ، فأخذ عبـد الرحمن مواثقنا على أن نسمع ونُطيع لمن ولاّه الله أمرنا ، ثمّ أخـذ بيد ابن عفان فـضرب بيده على يده، فنظرت في أمري، فإذا طاعتي قد سبقت بيْعتي ، وإذا ميثاقي قد أُخذ لغيري ، فـبايعنا عثمان ، فأدَّيت له حقّـه ، وعرفت له طاعته، وغـزوت معـه في جـيـوشه ، وكنت آخـذ إذا أعطاني ، وأغـزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسَوْطي .

فلمّا أصيبَ نظرت في أمري ، فإذا الخليفتان اللّذان أخذاها بعهد رسول الله ﷺ إليهما بالصّلاة قد مضيا ، وهذا الذي قد أُخذ له الميثاق، قد أصيب فبايعني أهل الحرمين وأهل هذين المصرين (١).

فهذا مثل من أمثلة العدل وقول الحق ولوكان لغير صالح النفس من الناحية الدنيوية ، وشاهد من شواهد الأمانه في نقل سنة رسول الله ﷺ ، فقدكان بإمكان علي رضي الله عنه أن يقول شيئًا مما يثبت أمره ويعتبر قوة على منافسيه ، ولكنه يعلم أن ذلك من خيانة الأمانة الدينية ، وماكان ليقدم مجد الدنيا الزائل على رضوان الله تعالى والسعادة الأخروية .

إن هذا الأمر لايتصور حدوثه من صغار الصحابة رضي الله عنهم فضلا عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه المشهود له بالجنة والسابق بالخيرات .

من أخباره في الزهد والورع :

من أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه أبو نعيم بإسناده عن علي بن ربيعة الوالبي أن علي بن أبي طالب جاءه ابن النباج فقال: ياأمير المؤمنين امتلأ بيت مال المسلمين من صفراء وبيضاء ، فقال: الله أكبر ! فقام متوكئًا على ابن النباج حتى قام على بيت مال المسلمين فقال :

هذا جَنَايَ خيارُه فيه وكلُّ جَانٍ يده إلى فيه

يا ابن النباج عليَّ بأشياع الكوفة ، قال: فنودي في الناس فأعطى

(١) تاريخ الإسلام ، عهد الخلفاء الراشدين / ٦٤٠ - ٦٤٢ .

جميع مـافي بيت مال المسلمين وهو يقول : ياصفراء ويابيـضاء غُرِّي غَيْرِي ، ها ، وها ، حتى مابقي منه دينار ولادرهم ، ثم أمره بنضحه وصلى فيه ركعتين .

وفي رواية أخرى لأبي نعـيم من خبر مـجمع التيمي قـال : كان عليّ يكنس بيت المال ويصلي فيـه ويتَّخذه مسجدًا رجـاء أن يشهد له يوم القيامة [1] .

ففي هذا مثل بليغ في الترفُّع عن مـتاع الدنيا الزائل ، فبيت المال قد امتلأ من الذهب والفـضة ، ولاينظر إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه نظرة إعجـاب وغرور ، بل كان جـوابه حينما أبلغه المسـئول المالي عن ذلك أن قـال : الله أكبر ! فـإذا كان بعض الناس يـكْبرون الدنيا ويعظمونها فالله تعالى أكبر منها ومن كل شيء ، ومادام المسلم يشعر حقا بأن الله أكبر فلماذا يجعل قلبه مستسلمًا لما هو أصغر !!

إنه فقـه عظيم من علي رضي الله عنه حـينما تذكر هـوان الدنيا وحقارتها فكبَّر الله تعالى ، ولسـان حاله يؤنِّب من انخدع بمتاع الدنيا الزائل ونسي أن الله جل وعلا أكبر من كل شيء .

وإنه لميزان دقـيق يحسـه المؤمن الذي نَوَّرَ الله سبـحانه بصـيرته، فكلما كان اللـه تعالى أعظم وأكبر من كل شيء في قلبـه كانت الدنيا ومافيـها أهون شيء عليه ، وأصبح يُسَخِّـر المال الحلال في طاعة الله جل وعلا ، وكلما عظمت الدنيا في قلبه كان ذلك على حساب نقص تعظيمه لله تعالى .

ونجد علـيا رضي الله عنه يُحَلِّق في آفـاق العظمة وهو يـخاطب

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٠ -٨١ ، تاريخ الإسلام للذهبي / الخلفاء الراشدون/٦٤٣ .

الدنيا بقوله : ياصفراء يابيـضاء غُرِّي غيري . . مما يدل على الوجدان الحيّ والحسّ المرهف الـذي يصـور الدنيـا كـخـصـم يخـاتل ويراوغ خـصمـه . . وهو بهـذا يعلن انتـصاره على جـمـوح النفس وجنوح العواطف ، ويُحكِّم عـقله الذي يعطي الدنيا حجمهـا المناسب لزمنها المحدود في شقائها ونعيمها ، ويعطي الآخرة حجمها المناسب لخلودها وعظمة نعيمها وهول جحيمها .

ونجده رضي الله عنه يصل إلى قمة المـعالي حينما صلى في بيت المال ركعـتين لتكونا شاهدتين له يوم القيـامة بأنه قد عـدل في حكمه واستقام في أمره .

ولعل في اتخاذ بيت المال مسجـدًا رمزًا لعلو الآخرة على الدنيا، وهو مكمِّل للسلوك العـالي الذي مـارسه في تصـريف ذلك المال في وجوهه المشروعة .

ومن مواقف علي رضي الله عـنه في الزهد والورع ماروواه هارون ابن عنترة عن أبيه قـال : دخلت على علي بن أبي طالب بالخَوْرنَق[1] وهو يُرعَد [2] تحت سَمَلِ قطيفة [3] فقلت : ياأمير المؤمنين إن الله قد جـعل لك ولأهل بيتك في هذا المال وأنت تـصنع بنفسك مـاتصنع ، فقال: والله ما أرزؤكم من مالكم شيئًا وإنها لقطفيتي التي خرجت بها من منزلي - أو قال من المدينة [4] .

---

(١) موضع بالكوفة .

(٢) يعني من شدة البرد .

(٣) يعني قطيفة قديمة .

(٤) حلية الأولياء ١/ ٨٢ ، صفة الصفوة ١/ ٣١٦ ، تاريخ الإسلام ، الخلفاء / ٦٤٤ .

وهنا نتساءل فنقول : ما الذي حمل أمير المؤمنين عليًا على أن يعيش عيشة الفقراء وأن يتحمل البرد القارس وهو قادر على أن يشتري أفخر ما يوجد في الأرض من الملابس وأكثرها دفئًا ؟ !

ولماذا تورع عن أموال المسلمين مع أن له حقا فيها ؟

إنه مثال للزهد الحقيقي حيث يرغب عن متاع الدنيا مع القدرة التامة على تحصيله .

إنه تلميذ المدرسة النبوية التي تربى فيها على الزهد في متاع الدنيا الزائل ، والتنافس على نعيم الآخرة الخالد ، فلقد عاش رسول اللهﷺ عيشة الفقراء وهو يستطيع أن يكون كأفضل الأغنياء .

ومن أخبار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الزهد والورع ما أخرجه الإمام أحمد من حديث أبي مطر عمرَ بن عبد الله الجهني قال : رأيت عليًّا عليه السلام متَّزرًا بإزار مرتديًا برداء ومعه الدِّرَّة [1] كأنه اعرابي بدوي ، ثم ذكر دخوله إلى السوق ومساومته أحد التجار في ثوب بثلاثة دراهم ، وأن التاجر عرفه ، قال: فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا ، فأتى آخر فلما عرفه لم يشتر منه شيئًا، فأتى غلامًا حدثًا فاشترى منه قميصًا بثلاثة دراهم ، ثم جاء أبو الغلام فأخبره، فأخذ أبوه درهمًا ثم جاء به فقال : هذا الدرهم ياأمير المؤمنين، قال : ماشأن هذا الدرهم ؟ قال: كان ثمن القميص درهمين، فقال : باعني رضاي وأخذ رضاه [2] .

---

(١) الدرة بكسر الدال وتشديدها العصا .

(٢) الزهد / ١٣٠ .

فهـذا مثل في الـزهد من أميـر المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فلقد كان مظهره في لباسه يوحي بأنه رجل أعرابي لخشونة ملابسه ، وحينما اشترى له ثوبًا اختار نوعًا متواضعًا رخيص الثمن مع أنه كان آنذاك أعلى مسـئول في العالم ، حيث كان خـليفة المسلمين، وهذا يدل على تواضعه وزهده في الدنيا .

ومثل آخر في الورع والاحتياط للدين حينما امتنع من الشراء ممن يعرفونه حتى لايراعوه في الثمن لمنصبه ، فهو لايريد أن يستثمر منصبه الكبيـر لمصالحه الخاصـة ، وهذا فهم دقيق لمجالات الورع والتـقوى، فالخلافة عنده وعند أمـثاله عمل صالح ، والخليفة إذا صـاحبه العدل كان أول السـبعة الذين يظلهم الله تعـالى في ظله يوم القيامة ، فـهو لايريد أن يدنس هذا العمل الصالح بمصالح دنيوية فيتحول العمل إلى مَجْلَبَةٍ للوزر بدلاً من الأجر ، فكان بهـذا السلوك العالي قدوة حسنة لمن أتوا بعده .

ومن أخـباره رضي الله عـنه في الزهد ما أخـرجـه عبـد الله بن الإمام أحمد من حديث عمر بن قيس قال : قيل لعلي عليه السلام : لِمَ ترقع قميصك ؟ قال : يخشع القلب ويقتدي به المؤمن (١) .

فهـذا مثل من زهده رضي الله عنه وحرصـه على تربية المسلمين على حـياة الزهد والتـقشف ، فـقـد لاحظ في لبس الثوب المرقـوع ملحظين : الأول أنه وسيلة إلى خشـوع القلب وتواضع النفس والبعد عن أسباب العجب والكبرياء،والثاني أنه يعتبر بذلك قدوة للمسلمين،

---

(١) الزهد / ١٣١ ، وانظر تاريخ الإسلام / الخلفاء / ٦٤٧ .

فإذا رآه الناس - وهو في أعلى منصب - يلبس الثوب المرقوع فإن نفوسهم تتطامن ويبتعدون عن التنافس في شراء الملابس الغالية الثمن، وَيَتَقَوَّى بذلك الزاهدون الذين يتعرضون لملامة الناس على سلوكهم حياة الزهد .

وكذلك ماأخرجه الإمام أحمد من خبر عبد الله بن زُرَير الغافقي قال : دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال حسن[1] : يوم الأضحى - فقرب إلينا خَزِيرة [2]، فقلت: أصلحك الله لو قربت إلينا من هذا البط - يعني الوزّ - فإن الله عز وجل قد أكثر الخير! فقال : ياابن زرير إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : لايحل للخليفة من مال الله إلا قصعتان ، قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يضعها بين يدَي الناس [3] .

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يضرب مثلا عاليا في الورع والزهد في متاع الدنيا الزائل من طعام وشراب ، فلقد كان بإمكانه أن يأخذ من بيت المال ماشاء من الأموال مما لايلفت النظر إليه ، حيث يُؤَمِّن له معيشة مساوية لأغنياء المسلمين، ولكنه رضي بخشونة العيش إيثارا للآجلة على العاجلة، واحتياطا لأمر دينه ، وإبرازاً للقدوة الصالحة ، لأنه إذا كان أعلى رجل في الدولة يعيش هذا المستوى من العيش فإن في ذلك عزاء

---

(١) هو حسن بن موسى شيخ الإمام أحمد .

(٢) الخزيرة لحم يقطع ويطبخ بالماء ثم يذر عليه الدقيق .

(٣) مسند أحمد ١/ ٧٨ .

للفقراء ليصبروا ويرضوا بقضاء الله تعالى وقدره ، ووعظًا للأغنياء ليشكروا الله تعالى فيخففوا من اندفاعهم نحو الترف والإسراف .

وإذا أخذ الأغنياء بالمنهج الوسط في المعيشة فإن فضول أموالهم ستعود في النهاية إلى الفقراء لما ينتظرونه مقابل ذلك من الجزاء المضاعف في الآخرة ، وبالتالي يرتفع الفقراء درجات نحو الوسط ، وينزل الأغنياء درجات نحو الوسط ، ليعيش الجميع حياة متقاربة في الأمور المعيشية من طعام ولباس ومركب وسكن .

وهذا هو المنهج الإسلامي الذي طبقه رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون من بعده رضي الله عنهم .

من مواقفه في الوصايا والحكم التربوية :

من ذلك ماذكره أبو نعيم وابن الجوزي رحمهما الله عن عاصم ابن ضمرة رحمه الله عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: ألا إن الفقيه كل الفقيه الذي لايقنِّط الناس من رحمة الله ولايُؤَمِّنهم من عذاب الله ولايرخص لهم في معاصي الله ، ولايدع القرآن رغبة عنه إلى غيره ، ولاخير في عبادة لاعلم فيها ، ولاخير في علم لافهم فيه ، ولاخير في قراءةلاتدبُّر فيها [(١)] .

ففي هذا النص يبين لنا علي رضي الله عنه أن من الفقه في الدين التزام صفة الاتزان والاعتدال في عرض أمور الدين ومحاولة إصلاح الناس ، وذلك بأن يسير الداعية في خط وسط بين مقامَي الخوف والرجاء ، فلاينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يقنطون

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٧ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٥ .

من رحمة الله تعالى ، ولاينطلق في تخويف الناس إلى الحد الذي يجعلهم يأمنون من عذاب الله تعالى ، ولقد جاءت آيات وأحاديث الوعد والتبشير أدوية شافية من أمراض اليأس والقنوط التي تحمل صاحبها على فقد الرجاء والأمل بعفو الله جل وعلا ورحمته، كماجاءت آيات وأحاديث الوعيد والإنذار أدوية شافية من أمراض الجفاء والقسوة ، التي تحمل صاحبها على فقد الخوف والخشية من نقمة الله تعالى وعذابه .

والحكيم كل الحكمة هو الذي يضع الأدوية في مواضعها المناسبة لها، ولقد ضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعد فأعطوا بذلك من ضلوا معهم أمانا من عذاب الله تعالى وإن قصروا وخالفوا ، وضلت طوائف بسبب الإفراط في الأخذ بأخبار الوعيد فأوقعوا من تأثر بهم في دائرة اليأس من رحمة الله تعالى، والمنهج الصحيح هو الاتزان والاعتدال في الأمرين .

ونجد عليا رضي الله عنه في هذا النص يبين أن من مظاهر الفقه في الدين أن لايهوِّن العالم من شأن المعاصي فيجرئ الناس على ارتكابها ، وأن يحافظ على مستوى الإيمان والتقوى لدى الناس مع محاولة رفعهم نحو الكمال في ذلك .

كما يبين أن من الفقه أن يحاول العالم ربط المسلمين بكتاب الله تعالى ، وأن لايتجاوزه إلى غيره رغبة عنه لأنه مصدر الهداية الأول، ومن المعلوم أن السنة النبوية بيان تفصيلي للقرآن الكريم فالتوجيه إلى القرآن يعتبر توجيها إلى السنة .

ثم يبين أن من أهم شـروط العبـادة الشـرعيـة المقبـولة أن تكون صادرة عن علم بالكتاب والسنة ،وأن العلم لايكون نافعا إلا إذا رافقه الفهم الصحيح ،وذلك أنه إذا تخلف الفهم الصحيح فقد يخلفه الفهم السقيم فـيكون الضلال والانحراف، ومن هنا كان الاطـلاع على فقه العلماء الربانيين له أهميته القصوى في تصحيح الفهم وتقويم الفكر .

ويختم وصيـته النافعه ببيـان أهمية تدبُّر معاني كـتاب الله تعالى حال التلاوة لأن الخير كل الخير في فـهم مقاصد القرآن الكريم للعمل بأحكامه والاتـعاظ بمواعظه وتنميـة الإيمان بتذكـر معانـي هذا الكتاب العظيم .

ونجد وصيــة أخرى رواها الشعبي رحـمه الله عن علي رضي الله عنه أنه قال : ياأيها الناس خذوا عني هؤلاء الكلمات، فلو ركبتم المُطِيَّ حتى تُنضـوها - يعني تهزلوها - ماأصبـتم مثلها : لايرجـوَنَّ عبد إلا ربه، ولايخـافنَّ إلا ذنبه ، ولايسـتحـيي - إذا لم يعلم - أن يتـعلم، ولايستـحي - إذا سئل عـما لايعلم - أن يقول لا أعـلم، وأعلموا أن الصبـر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسـد ولاخير في جـسد لارأس له[1] .

ففي هذه الوصـية الجمع بين تصـحيح التوحيـد ، والإرشاد إلى آداب العلم ، حيث يوصي رضي الله عنه بتصحـيح الاتجاه في مقامَي الخوف والرجاء ، فالمؤمن الحق لايرجو إلا الله تعالى لأنه وحده المنعم بسـائر النعم ، والذين تجري على أيديـهم النعم من المخلوقين إنما هم

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٦ .

وسائط وأسباب في وصول تلك النعم ، أما منشئ النعم وموجدها فهو الله تعالى .

والمؤمن الحق لايخاف إلا من الله تعالى لأنه هو الذي يملك ضره ونفعه ، والمخلوقون الذين يتوهم الناس أنهم مصدر خوف إنما هم وجميع الخلق في قبضة الله تعالى ، وإذا كان الله تعالى وحده هو الرازق وهو الخالق وحده وهو المالك وحده القادر على كل شيء فلِمَ يرجو المؤمن سواه أو يخاف من غيره ؟!

ولقد عبر علي رضي الله عنه عن الخوف من الله تعالى بالخوف من الذنوب لأن المراد هو الخوف من عاقبتها وهو عذاب الله تعالى فهو إرشاد لأهم السبل الموصلة إلى تحقيق مقام الخوف من الله تعالى.

ثم يبين شيئا من آداب التعلم لأن أمور الدين إنما تؤخذ بالعلم فيذكر من آداب المتعلم أن لايمنعه الحياء من التعلم حتى لوكان كبير السن أو القدر ، ويذكر من آداب المعلِّم أن لايمنعه الحياء من أن يقول لا أعلم فيما لاعلم له به لأن ذلك يحفظ عليه دينه ودين من سأله.

ثم يختم وصيته النافعة ببيان أصل من أصول الإيمان ألا وهو الصبرحيث يعتبره من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وذلك أن نجاح الأمور كلها يقوم على الصبر سواء في أمور الدنيا أو الآخرة .

ومن ذلك مارواه عبد خير بن يزيد الهمداني رحمه الله عن علي رضي الله عنه قال : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربك، فإن أحسنت حمدت الله وإن أسأت استغفرت الله ، ولاخير في الدنيا إلا

لأحد رجلين: رجل أذنب ذنبا فهو يتدارك ذلك بتوبة ، أو رجل يسارع في الخيرات ، ولايقلُّ عمل في تقوى، وكيف يقلُّ ما يُتقبَّل[1].

ففي هذه الوصية يبين لنا علي رضي الله عنه مقياس الخيرية والأفضلية في هذه الحياة الدنيا ، فأفضل الناس ليس أكثرهم مالاً ولا أولادًا كما يفهم الجاهلون ، بل أفضلهم أعلمهم بالله تعالى وأكثرهم حلما، والعلم إذا لم يوصل إلى خشية الله تعالى وتقواه فليس بعلم نافع ، والحلم يكون خلقًا متوارثًا ويكون مكتسبًا ، والحلم المكتسب أثر من آثار العلم بالله تعالى .

ويشير علي رضي الله عنه إلى الأمر العالي الذي يجب أن يكون التنافس عليه في هذه الحياة وهو عبادة الله تعالى ، وليس المقصود بالمباهاة بالعمل الصالح مراءاة الناس بذلك وإنما المقصود وضوح الهدف العالي الذي يجب أن يتنافس المسلمون على بلوغه ألا وهو بذل الجهد في عبادة الله تعالى وحده.

ويبين علي رضي الله عنه أن الذين يستفيدون من بقائهم في هذه الحياة الدنيا هم الذين يعمرونها بصالح الأعمال التي يتزودون بها للحياة الآخرة سواء في ذلك الذين يكسبون هذه الأعمال الصالحة لرفع رصيدهم الأخروي أو الذين يعملون من أجل الدنيا فهم من ضعاف العقول لأن أنظارهم قصرت على دار الزوال ولم تطمح إلى دار الخلود فلا خير في أعمالهم .

ونجد عليا رضي الله عنه في وصية أخرى يحذِّرنا من داءين خطيرين هما اتباع الهوى وطول الأمل حيث يقول: إن أخوف ما أخاف

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢١ .

اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فينسي الآخرة،ألا وإن الدنيا قد ترحَّلت مدبرة،ألا وإن الآخرة قد ترحَّلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بَنُون،فكونوا من أبناء الآخرة ولاتكونوا من أبناء الدنيا فإن اليوم عمل ولاحساب وغداً حساب ولاعمل (١) .

فالداء الأول هو اتباع الهوى ، وقد بين علي رضي الله عنه أنه يصد عن الحق ، وذلك أن الذي يتبع هواه يسد منافذ فكره فلايصل نور الحق إلى عقله .

والداء الآخر طول الأمل ، وقد ذكر أنه ينسي الآخرة ، وذلك أن الذي يعيش مع أحلام الدنيا تستهويه هذه الأحلام فيسخِّر فكره للتخطيط للمستقبل الدنيوي ، وينسى العمل للمستقبل الأخروي.

ثم يصور زوال الدنيا بالراحل المدبر ،فالذي يتبع ذلك قد انخدع بالسراب ولن يصل إلى النعيم الحقيقي ، ويصوِّر الآخرة بالقادم المقبل، وإنه ليس من العقل السليم أن ينشغل الإنسان بالمدْبِر الفائت عن المقبل المحقق.

ومن وصايا أمير المؤمنين علي رضي الله عنه النافعة مارواه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: ماانتفعت بكلام أحد بعد رسول الله ﷺ كانتفاعي بكتاب كتب به إلي علي بن أبي طالب فإنه كتب إلي :« أما بعد فإن المرء يسوءه فَوْتُ ما لم يكن ليدركه ، ويسره دَرْكُ ما لم يكن ليفوته ، فليكن سرورك بمانلت من أمر آخرتك،

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٦ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢١ .

وليكن أسفك على مـافاتك منهـا ، ومانلت من دنياك فـلا تكثرنَّ به فرحا ،ومـا فاتك منها فلا تأس عليـه حزنا، وليكن همك فيـما بعد الموت [1] .

وإنها لوصية نافعة حقـا حيث ركز فيها علي رضي الله عنه على جمع الفكر وتسخيره للنظر في أمور الحياة الآخرة، وقدّم لذلك بمقدمة يؤمن بها جميع العقلاء ، وهي أن الإنسان العاقل يسره إدراك مايحب ويسوءه فوات ذلك عليه ، وإذا كان الأمر كذلك وعرفنا حقيقة أخرى يدركها كل مسلم وهي أن الآخرة هي دار الخلود وأن نعيمها هو النعيم الحقيقي الذي لا يخالطه كدر ، وأن شقـاءها هو الشقاء الحقيقي الذي لايخالطه سعادة . . إذا عرفنا ذلك فـإن من كمال العقل وسداد الرأي أن يسعى المسلم إلى إدراك ما يحب من أمر الآخرة والندم على مافات منها وأن لايشغل نفسه عن ذلك بأمور الدنيا الزائلة .

ومن ذلك الخـبر الذي رواه الحافظ أبو نـعيم عن كُمَـيْل بن زياد قـال: أخذ علي بن أبي طـالب رضي الله عنه بيـدي فأخـرجني إلى ناحيـة الجبَّـان - يعني الصحراء - فـلما أصحـرنا جلس ثم تنفس ثم قال: ياكميل بن زياد ، القلوب أوعية فخيرها أوعاها للعلم، احفظ ما أقـول لك : الناس ثـلاثة : عـالم رباني ، ومـتـعلم عـلى سـبـيل نجاة، وهَمَجٌ رعاع أتباع كل ناعق ،يميلون مع كل ريح ، لم يسـتضيئوا بنور العلم ، ولـم يلجئوا إلى ركن وثيق ، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنـت تحرس المال ، العلم يزكـو على العمل والمال تنقـصه

(١) صفة الصفوة ١/٣٢٧ .

النفـقـة ،العلم حـاكم والمال مـحكـوم عليـه ، وصنعـة المال تزول بزواله،ومحـبة العالم ديـن يدان بها،العلم يُكسب العـالِم الطاعة في حيـاته ، وجميلَ الأحدوثة بعـد مماته ، مات خُزَّان المالَ وهم أحـياء والعلماء باقون مابقي الدهر ، أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة [١] .

إن هذه الوصـية الـبليغـة قـد اشتـملت على دُرر المواعظ وغُـرَر الحِكَم، فقد قسم علي رضي الله عنه الناس إلى ثلاثة أقسام :

الأول : العلمـاء الربانيون ، والمقـصـود بالعلماء علمـاء الدين، والربانيون الذين يجمـعون بين الفقه والحكمة كما جـاء في تفسير ابن عباس رضي الله عنهـما في قوله تعالى ﴿ **ولكن كونوا ربانيين** ﴾ قال: حكماء فقهـاء ، أخرجه الإمام البخاري ، وبذلك فـسره عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [٢] .

فالذيـن يجمعـون بين الحكمة والـفقه هم المؤهـلون لتربيـة الأمة وتوجيهها ، لأن الحكمـة وضع الشيء في موضعه المناسب ومن ذلك التوفـيق إلى تطبيق الحكم الشـرعي على واقع الناس، وذلك يقـتضي فهما دقيقا لواقع المجتـمع الإسلامي ، ومن الحكمة القيام بتربية الأمة بهـذا الدين ، وذلك يقـتضي الجـمع بين تعليم الدين والـتربيـة على التقوى ومكارم الأخلاق .

أما الفقه فهو فهم الأحكام الدينية من مصادرها الشرعية .

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٥ ، صفة الصفوة ١/ ٣٢٩ .

(٢) فتح الباري ١/ ١٦١ .

ولذلك كان العلماء الربانيون هم أفضل الأمة ، لأنهم جمعوا بين فضيلتين : تَلَقِّي العلم ، والتعليم مع التربية ، فهم المؤهلون لتربية الأمة وتوجيهها .

القسم الثاني : طلاب العلم الذين أخلصوا نياتهم في طلب العلم ليكون وسيلة إلى نجاتهم من المسئولية أمام الله تعالى، وقد عبر علي رضي الله عنه عن هذا القسم بقوله « ومتعلم على سبيل نجاة » وهذا لايختص بالدارسين الذين تفرغوا لطلب العلم ، وإنما يشمل كل من حمل مسئولية تطبيق هذا الدين ، وأهمَّه أمر نجاته في الآخرة ، فاستفتى في أمور دينه العلماء الربانيين ، ليعبد الله تعالى على بصيرة وليستقيم في معاملته مع الناس على منهج شريعة الله تعالى ، فهذا يعتبر من المتعلمين على سبيل النجاة وإن لم يجلس في حلقات العلم.

القسم الثالث : الذين هجروا العلم الديني ولم يكن لهم ارتباط بالعلماء الربانيين في معرفة أمور دينهم ، وقد عبر عنهم علي رضي الله عنه بقوله « وهَمَجٌ رعاع اتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق » فهؤلاء هم الذين اهتموا بأمر دنياهم وأهملوا أمر آخرتهم ، فهم يتبعون كل داع يدعوهم إلى أمر مستقبلهم الدنيوي ، ولكنهم يستثقلون الدعوة إلى تأمين مستقبلهم الأخروي .

وقد ذكر من صفاتهم أنهم يميلون مع كل ريح ، وهذا يعني أنهم لايثبتون على مبدإ واحد تجاه هذا الدين ، فهم أحيانًا يلتزمون ببعض الطاعات ، ثم يهملونها أحيانًا أخرى ، وأحيانا يقلعون عن بعض

المعاصي ، ثم يعودون إليها ، وذلك لأنهم لم يتصوروا المبدأ الواضح الذي يتفق على الإيمان به والعمل له كل المسلمين المخلصين، ألا وهو ابتغاء رضوان الله تعالى والسعادة في الآخرة ، كما قال الله تعالى عن الصحابة رضي الله عنهم ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ (١) فالفضل من الله هو الجنة ورضوان الله أكبر من ذلك، فالذي يتصور هذا الهدف ويؤمن به حقا يستقيم سلوكه في هذه الحياة ، لأن كل أعماله تتوجه وتتعدل بموجب مراعاة هذا الهدف السامي ، أما الذي يفقد تصور هذا الهدف فإنه حقا يميل مع كل ريح .

ثم ذكر من صفاتهم أنهم لم يستضيئوا بنور العلم ، وذلك لأنهم أخذوا هذا الدين بالوراثة ، فهم مسلمون لأنهم ولدوا كذلك ونشئوا في بيئة إسلامية، ولكنهم لايهتمون بأمور الدين ولايسألون أهل الذكر عما خفي عليهم .

ثم ذكر أنهم لم يلجئوا إلى ركن وثيق ، وذلك لأنهم بالرغم من إيمانهم بالله تعالى فإن هذا الإيمان ليس له وجود حيّ في قلوبهم بحيث يؤثر على حياتهم فيحرك مشاعرهم ، ثم بالتالي يقوِّم

---

(١) الفتح / ٢٩ .

سلوكـهم، ولذلك فإنهم يأخـذون من أمور الدين مـا يوافق أهواءهم ويتركون ما يخالفها .

وفي المقطع الأخيرِ من الوصية يعقد علي رضي اللـه عنه مقارنة بين العلم والمال ، باعـتبـار أن العلم الشرعي هـو عماد أهـل الآخرة ومعقد عزهم وشرفهم في الدنيـا والآخرة ، وباعتبار أن المال هو عماد وجود أهل الدنيـا ومحط تنافسـهم وشرفهم ، وقـد بدأ بالحكم على العلم بأنه خير من المال ، والمقـصود بالعلم هنا العلم الإلهي حيث إنه هو الذي يهـدي إلى رضـوان الله تعـالى وسـعادة الدنيـا والآخـرة، والمقصود بالمـال هنا الذي يجمعه صاحـبه لذاته ولايتوجه فـيه بالعلم الإلهي . وقد سوغ هذا الحكم بعدة أمور :

١- أن العلم يحرس صاحبه بينما صاحب المال هو الذي يحرسه، فأما حـراسة العلم صاحبـه فإن العلم الإلهي يقي صاحبـه من مهالك الدنيا والآخـرة ، فأما أمـر الآخرة فظاهر معلـوم حيث إن هذا العلم يقود صاحبه إلى رضـوان الله تعالى وَالجنة ويجنبه طريق النار. . وما أعظمها من مطالب وما أبلغها من مكاسب.

وأما الوقاية من مـهالك الدنيا فإن السعادة الروحـية الحقة لاتكون إلا باليقين الذي تتـضاءل أمامـه الحياة الدنيا فـتصبح جـميع مآسيـها ونكباتهـا بَردًا وسلامـا على أصحـاب اليقين لأنهم لايُلقـون لها بالا ولايعيـرونها اهتـمامـا بينما تتـحول هذه المآسي والـنكبات إلى حـياة جحـيميـة على أهل الدنيا الذين يعتـبرون الحيـاة الدنيا هي رأس المال والمكسب .

وأما حراسة صاحب المال ماله فأمرها ظاهر ، فكم تململ أصحابها من الهم والخوف عليها تململ المريض وكم تجافت جنوبهم عن مضاجعهم من التفكير المنهك كما تتجافى جنوب العبَّاد عن مضاجعهم! ولكن ماأبعد الشقة بين مطالب هؤلاء ومطالب هؤلاء ! لئن جمع بينهم التفكير العميق الذي يطير معه النوم فإن العُبَّاد يَسْبحون في جو عبق من الرَّوح والريحان ، والأمل المشرق في مستقبل أخروي سعيد ، وماجفا النوم عيونهم إلا لطموحهم نحو مزيد من المنازل العليا في الجنة ، وإن أصحاب هذا الشعور المشرق لن يتطرق إلى قلوبهم شيء من الغم القاتل ، بخلاف من بات يحرس ماله بهمه وقلقه وحزنه المنهك .

٢ - أن العلم ينمو ويترسخ بالعمل ، لأن العمل تطبيق للعلم فهو بذلك يزيده عمقًا في الذاكرة بخلاف المال فإن الإنفاق منه ينقصه، ولا يغيبنَّ عن البال أن المقصود هنا أموال أهل الدنيا التي ينفقون منها من أجل الدنيا، أما أموال أهل الآخرة فإنها محكومة بالعلم الإلهي ، فالإنفاق منها يزيدها نموّاً كما جاء في قول الرسول ﷺ « مانقص مال عبد من صدقة » (١) .

٣ - أن العلم الشرعي حاكم لأنه به تنتظم شئون الحياة، وعلى منهاجه يجب أن تقرر جميع الأنظمة التي تحكم الناس، فهو الحاكم الحقيقي ، أما المال فإنه محكوم عليه لأن إصداره وإيراده يخضع للأنظمة الحاكمة سواء كانت شرعية أو غير شرعية .

(١) سنن الترمذي ، كتاب الزهد ، باب ١٧ .

٤- أن العـلاقات الاجـتمـاعيـة التي تقـوم على المصالح الماليـة المشتـركة تزول بزوال المال ، لأنه هو الذي عـقد تلك العـلاقات بناء على تبادل المصلحة بوجوده فإذا زال زالت تلك المصالح، أما العلاقات الأخوية التي تقوم على تبـادل العلم الشرعي بين العالم ومحبـيه فإنها باقيـة خالدة في الدنيا والآخـرة كما قـال الله تعالى ﴿ **الأَخلاَّءُ يومئذٍ بعضُهم لبعضٍ عدوٌّ إلاَّ المتَّقين** ﴾ [**الزخرف** : ٦٧] بل إن هذه الأخوة تكون في الآخرة أجل وأعلى كـما في قول اللـه تعالى عن أهل الجنة ﴿ **ونزعنا ما في صدورهم مّن غلٍّ إخوانا علىٰ سررٍ مُّتقابلين** ﴾ [**الحجر** : ٤٧].

٥ - أن العلم الشـرعي يكسب صاحـبه ولاء المسلمين وطاعـتهم اختياراً منهم من غير أن تُفرض عليهم هذه الطاعة، وذلك على امتداد حياتهم كما يكسبهم الذكر الحسن بعد مماتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليـهـا ،حيث لايفـقـد الناس إلا صورهـم وأشكالهم،وإننا لو استـعـرضنا التـاريخ إلى عـصـرنا هذا لوجـدنا العلمـاء من عـهـد الصحـابةرضي الله عنهم تتـردد أسماؤهم ويـذكر تاريخ حيـاتهم في الكتب والخطب والدروس العلمـية،بينـما اندرست أسـماء كبـار أهل الدنيا بانقضاء حياتهم ، وأحيانا يشاهدون انطفاء سمعتهم وهم أحياء.

* * *

فهرس الجزأين الثالث والرابع

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة
– خبر أمير المؤمنين عمر مع الهرمزان	٢٠٦
– عمر يستشير الهرمزان	٢١٤
– فتح مدينة جُنْدَيْ سابور	٢١٦
– النعمان ومدينة كسكر	٢١٨
– شكوى أهل الكوفة سعد بن أبي وقاص	٢١٩
– معركة نهاوند (فتح الفتوح)	٢٢٩
معاهدة بين الفرس	٢٢٩
مشورة أمير المؤمنين عمر لأهل الرأي	٢٣٠
كتاب من أمير المؤمنين إلى النعمان	٢٣٣
مغامرة من طليحة الأسدي	٢٣٦
وصول المسلمين إلى نهاوند	٢٣٧
مناوشات ومشورة بين النعمان وأهل الرأي	٢٣٩
خطبة للنعمان	٢٤٣
ابتداء المعركة الفاصلة	٢٤٥
مواقف لبعض المجاهدين	٢٤٩
وصول خبر الفتح إلى المدينة ومواقف لعمر	٢٥١
– فتح أصبهان	٢٥٧
– معركة واج الرّوذ	٢٥٩
– فتح الري	٢٦١
– فتح الباب	٢٦٣
– شهادتان لصالح المسلمين (شهادة ملك الباب وشهادة ملك الصين)	٢٧٠

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة